الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون- تيارت-
كليـــة الآداب واللغـات
قسم اللغة والادب العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والادب العربي
التخصص: نقد حديث ومعاصر
بعنوان:

فلسفة الزمان والمكان في الشعر الجاهلي البكائية الطللية أنموذجا

إعداد الطالبتين:
عدة سناء
رحماني سعيدة

تحت إشراف:
أ/ د خروبي بلقاسم

لجـــــنة المنـــــاقـــــشة		
خروبي بلقاسم	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا
جمال الدين عبد الهادي	أستاذ مساعد –ب-	رئيسا
بلحسين محمد	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1444 – 1445 هـ / 2023- 2024 م

إهـــداء

إلهي لا تطيب اللحظات إلا بحمدك وشكرك، فالله ملك الحمد والشكر لأنك وفقتني لإتمام هذا العمل وتحقيق حلمي.

وأقول من فرط الطموح أنا لها ظللت أسعى خلفها في همة حتى عانقت غايتي، فالحمد لله الذي أنعم وأكرم وأتم ((فعلتها لأجل رمش عين أمي كد يد وأبي)).

إلى من كلل العرق جبينه ومن علمني أن النجاح لا يأتي إلا بالصبر والإصرار، إلى النور الذي أنار دربي والسراج الذي لا ينطفئ نوره بقلبي أبدا من بذل الغالي والنفيس، واستمديت منه قوتي واعتزازي بذاتي، إلى من أحمل اسمه بكل فخر وعزة وشرف، إلى أبي العزيز.

إلى من جُعلت الجنة تحت أقدامها، وسهلت لي الشدائد بدعائها، إلى الإنسانة العظيمة التي طالما تمنت أن تقر عينها لرؤيتي في يوم كهذا، أمي العزيزة.

إلى ضلعي الثابت وأمان أيامي، إلى من شددت عضدي بهما فكانا لي ينابيع أرتوي منها، إلى خيرة أيامي وصفوتها، إلى قرة عيني، إلى أختي وأخي الغاليين.

إليكم عائلتي أهديكم هذا الانجاز وثمرة النجاح التي لا طالما تمنيته، ها أنا اليوم أكملت وأتممت أول ثمراته بفضله سبحانه وتعالى، الحمد لله على ما وهبني، فمن قال لها نالها فأنا لها وإن أبت رغما عنها أتيت بها، فالحمد لله شكرا وحبا وامتنانا على البدء والختام، وآخر دعوانا أن ((الحمد لله رب العالمين)).

سناء

إهـــداء

قال تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله و المؤمنين﴾

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك.

إلى أبي إلى الجدار الذي أستند عليه في تعبي وحزني إلى الكتف التي أضع عليها أثقالي

إلى عزيزي وحبيبي الذي أحبه بقدر هذا العالم وأكثره، الوطن الذي أنتمي إليه والأرض التي تحتويني، إلى أغلاهم على قلبي وأقربهم إلى...

إلى أمي وقد ورثت في جوفها كيف أكون إنسانا قبل أن أصرخ صرختي الأولى في هذا العالم ... ليس فقط لأنك آويتني في رحمك الدافئ تسعة أشهر وتعاركتي مع الموت لتمنحيني الحياة في ميدان المخاض ... إنما لأنك كنت منذ أنجبتني حتى هذه اللحظة أما عظيمة إلى الحد الذي أشعر فيه بأنك كثيرة علي ...

إلى جسر المحبة والعطاء مصدر قوتي إخوتي

إلى رفاق الخطوات الأولى إلى من كانوا في السنوات العجاف سحابا ممطرا

أنا ممتنة لكم جميعا

سعيدة

كلمة شكر

الحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على صفوة خلقه وأنبيائه، وعلى آله وصحبه وبعد.

يطيب لنا وقد منَّ الله علينا بإتمام هذه المذكرة أن نردَّ الجميل لأهله، وننسب الفضل لأصحابه، فالشكر لله أولا وأخرا على نعمه العظيمة، وآلاءه الجسيمة على ما يسر لنا من إنجاز هذا العمل، فله الحمد والثناء بما هو أهله.

وانطلاقا من قول المصطفى صلى الله عليه وسلم:

﴿ لا يشكر الله من لا يشكر الناس ﴾ رواه أحمد والترمذي.

نتقدم بجزيل الشكر والتقدير للصرح العلمي الشامخ جامعة ابن خلدون، خاصة قسم اللغة العربية وآدابها.

وبأصدق العبارات وأوفاها نقدم شكرنا وتقديرنا للدكتور الفاضل خروبي بلقاسم المشرف على هذه المذكرة على ما أولانا به من اهتمام ونصح وإرشاد، وإفادته لنا من مكتبته، فجزاه الله خير ما جزى به أستاذا عن طلابه.

كما لا يفوتنا أن نتقدم بالشكر والامتنان لكل من ساهم في إنجاز هذا البحث ولو بدعاء.

وأخيرا نسأل الله العظيم أن نكون قد وفقنا في هذه الرسالة، فما من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ فمن أنفسنا والشيطان

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين الذي علمنا وأرشدنا وهدانا إلى السلوك القويم، وحبانا نعمة العقل وميزنا عن خلقه أجمعين، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، وبعد.

يمثل الشعر العربي ذاكرة حية للعرب، يسطر على صفحاتها إنجازاتهم، ومكارم أخلاقهم، وينقل لنا صورة جلية لأنماط حياتهم وبيئتهم، ويخلد مفاخرهم عبر الأجيال المتلاحقة، فالشاعر العربي لم يكن مجرد نساج كلمات، بل كان لسان حال قبيلته وناطقها الرسمي في المحافل والمنتديات، يعبر عن طموحاتها، ويعبر عن آمالها .

فالشعر الجاهلي يعد من أقدم روافد الأدب العربي، وهو مرآة صادقة تعكس ثقافة وحضارة العرب في تلك الحقبة، ويطلق مصطلح الشعر الجاهلي على الشعر العربي المنشد قبل ظهور الإسلام، ويرتبط هذا المصطلح بفترة الجاهلية وهي الفترة التي سبقت الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

ومن أشهر سمات الشعر الجاهلي البارزة ظاهرة الوقوف على الأطلال والبكاء عليها ;حيث يبدأ الشاعر قصيدته بمقدمة طللية يصف فيها الديار القديمة الخالية باحثا عن أثار حبيب رحل أو زمن مضى وانقضى، و لم تكن هذه الظاهرة مجرد تقليد شعري، بل كانت انعكاسا صادقا لواقع الحياة الجاهلية وظروفها، وترجمة عميقة لأحاسيس النفس العربية آنذاك.

وقد حظيت البكائية الطللية باهتمام كبير من قبل النقاد والدارسين لما لها من دور هام في رسم بنية القصيدة العربية، وتجديد موضوعاتها، حيث أتاحت للشاعر فضاء للتعبير عن مكنونات نفسه، وما يعتلج في صدره من مشاعر الحزن والأسى اتجاه الماضي في رحلته عبر الزمن، يحيي الشاعر فيها ذكريات الأيام الخوالي، (حاملا معه عبء الفراق والألم) ليجسدها في قالب شعري متميز، ويخلدها خالدة في ذاكرة الأدب العربي، فهي بمثابة المدخل الأمثل للولوج إلى عالم القصيدة الجاهلية، وفهم مشاعر الشاعر وأفكاره.

وقد ساهمت بعض العوامل في شيوع ظاهرة الوقوف على الأطلال منها الظروف الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية التي حتمت على العرب الذين يعيشون في بيئة صحراوية قاسية التنقل الدائم بحثا عن الماء والمرعى، أدى ذلك إلى هجر الديار، وفراق الأحبة تاركين وراءهم أطلالا كانت عامرة بالأمس القريب.

فالبكائية الطللية في الشعر الجاهلي تعتبر من أبرز التجليات الأدبية التي ازدهرت في الفترة الجاهلية من التاريخ العربي، ومن أبرز العناصر الأساسية التي شكلت هذا النوع الشعري، تبرز فلسفة الزمان والمكان كعنصر أساسي يميزه ويمنحه هويته الفريدة، فهما من المفاهيم التي تشكل وعي الإنسان وتجربته، فالزمان بشير إلى تسلسل الأحداث وتغيرها، بينما يشير المكان إلى موقع الأشياء ووجودها.

لم يكن مفهوما الزمان والمكان مجرد مفاهيم مادية في الشعر الجاهلي، بل تم توظيفهما للتعبير عن مشاعر الشعراء ورؤيتهم للحياة، فمثلا كان الزمان يمثل لهم رحلة الحياة مع تقلباتها، بينما كان المكان يمثل لهم الديار والأحباب والمأوى، فارتباط هذين المفهومين ارتباطا وثيقا في قصائد البكائية الطللية، وتشكيلهما للتجربة الشعرية حيث يساهم الماضي في تحديد الحاضر، بينما يسهم المكان في تحديد الزمان.

في هذا السياق يبرز دور فلسفة الزمان والمكان كأحد العناصر الأساسية في تحديد هوية الشعر الجاهلي، حيث يعكسان السياق الاجتماعي والثقافي لتلك الحقبة بشكل لا يمكن إغفاله، فهما ليس مجرد إطار للأحداث والأفكار، بل يشكلان جزءا أساسيا من الرؤية الشعرية والتجربة الإنسانية للشاعر.

بناء على هذا سنسعى جاهدين في هذه الدراسة المتواضعة استكشاف وفهم كيفية تصوير الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، مع التركيز بشكل خاص على البكائية الطللية أنموذجا، مع تحليل النصوص الشعرية الجاهلية لفهم دلالات الزمان والمكان، وكيف وظف الشاعر الجاهلي هذين العنصرين بكفاءة واقتدار ليعكسا مشاعره ورؤيته للعالم من حوله، وليس غريبا أن نركز في عملنا هذا وفي جانبه الإجرائي على أسماء

محددة بعينها، رغم كثرة الشعراء الجاهليين وعلو قدرهم ومكانتهم، وغزارة إنتاجهم الشعري وجودته، لكننا ومن خلال دراستنا سجلنا تميز ثلاثة شعراء مجيدين تميزوا عن غيرهم حضورا وأكثر توظيفا لبنيتي الزمان والمكان، وبناء على ما سبق، فقد برزت لدينا إشكالية عامة تمثلت فيما يلي:

- ما هي تجليات فلسفة الزمان والمكان في الشعر الجاهلي من خلال نموذج البكائية الطلالية؟
- وما هي الأبعاد الفلسفية والنفسية التي تعبر عنها هذه المطالع بتوظيفها للزمان والمكان؟

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية أسئلة جزئية منها:

- كيف تم التعامل مع الزمان في الشعر الجاهلي؟
- ما هي الرموز والدلالات الزمنية التي استخدمها الشاعر الجاهلي؟.
- كيف عبر الشاعر الجاهلي عن مرارة فقد الأحبة والحنين إلى الماضي من خلال الزمن؟
- كيف تم تصوير الأماكن في البكائية الطللية؟
- كيف عكست الأماكن في البكائية الطللية الحالة النفسية والشعورية للشاعر الجاهلي؟
- كيف عبرت البكائية الطللية عن مشاعر الفقد والحنين وذكرى المنازل من خلال الزمان والمكان؟

هذه الإشكالية وغيرها من الأسئلة المتفرعة عنها سنسعى الإجابة عنها في ثنايا دراستنا التي اعتمدنا فيها المنهج البنيوي التكويني مستعينين بآلية التحليل برؤية نسقية لا تهمل جانب السياق التاريخي للزمان و المكان معا، حيث قمنا بجمع مجموعة من القصائد البكائية الطللية التي تعبر بشكل واضح عن الزمان والمكان، وعملنا على ذكر الكيفية التي وصف بها هؤلاء الشعراء الزمان والمكان في النصوص المدروسة من خلال تحليل الألفاظ

والتعابير وكذا الرموز المستخدمة، إذ تم تحديد الأماكن التي يذكرها الشعراء مثل الديار المهجورة، والأطلال، والأزمنة المختلفة مثل الأيام الخالية، والذكريات، وقد تم تحليل النصوص الشعرية من أجل فهم الدلالات الرمزية والمعنوية المرتبطة بالزمان والمكان، كما نظرنا في كيفية تعبير الشعراء عن مشاعر الحنين والفقد والتأمل في الزمن الماضي، وكيف ترتبط هذه المشاعر بالمكان، من خلال هذه الخطوات تم الوصول إلى فهم عميق لكيفية استخدام الشعراء الجاهليين للزمان والمكان للتعبير عن المشاعر والأفكار، وتم استنتاج أن البكائية الطللية تعكس فلسفة وجودية ترتبط بالحنين إلى الماضي، والتأمل في الطبيعة، انعكاسا لتجربة الشاعر الجاهلي في التعامل مع الفقد والحنين.

وقد دفعنا لاختيار هذا الموضوع دون غيره من المواضيع الأخرى دافعين أولهما موضوعي مفاده قلة الدراسات حول هذا الموضوع في المكتبات العربية عموما والجزائرية خصوصا، وثانيهما حب التحدي لخوض تجربة البحث في هكذا موضوعات نظرا لولعنا الشديد بالشعر الجاهلي وشعرائه.

اقتضت طبيعة الموضوع أن نقسمه إلى مقدمة ومدخل تمهيدي وفصلين تطبيقيين، وخاتمة، وقد استهلت هذه الدراسة بمدخل تحت عنوان: الشعر الجاهلي المفهوم والخصائص، بدأناه بالتعريف بمفهوم الشعر الجاهلي، ثم عرجنا على خصائصه، وبعد ذلك انتقلنا إلى الحديث عن بنية القصيدة الجاهلية، وبعدها خلصنا إلى فلسفة الزمان والمكان، هذا فيما يخص الجانب النظري من البحث.

أما فيما يخص الجانب التطبيقي الذي جاء في فصلين كاملين، فقد أفردنا بالدراسة والتحليل في هذين الفصلين، الأول والموسوم ب: فلسفة الزمان في الشعر الجاهلي، فقد جاء في ثلاثة مباحث، المبحث التطبيقي الأول المعنون ب-الزمان في الشعر الجاهلي، ثم المبحث الثاني الموسوم ب: تجليات فلسفة الزمان في المقدمة الطللية، وصولا إلى المبحث الثالث الذي عنوناه ب- مستويات الزمان ودلالاته في البكائية الطللية.

أما الفصل التطبيقي الثاني والمعنون ب: فلسفة المكان في الشعر الجاهلي فقد جاء هو كذلك في ثلاثة مباحث، ففي المبحث الأول تحدثنا عن المكان في الشعر الجاهلي، وفي البحث الثاني تطرقنا إلى تجليات فلسفة المكان في المقدمة الطللية، وأخيرا المبحث الثالث الذي تطرقنا فيه لمستويات المكان ودلالاته في البكائية الطللية.

وخلصنا من خلال هذه الرحلة الممتعة والشاقة في الآن نفسه إلى جملة من النتائج ذيلنا بها بحثنا، وهي حرية بالوقوف عليها وتأملها.

هذا وقد أفدنا من بعض المصادر والمراجع المهمة من أجل إثراء بحثنا نذكر منها:

- الزمان والمكان في الشعر الجاهلي لباديس فوغالي، عالم الكتب الحديث، ط1 الصادر سنة 2007.
- شرح المعلقات السبع للزوزني، دار إحياء التراث العربي، ط1، الصادر سنة 2002
- شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث ــ دراسة تحليلية،الصادر سنة 1968.
- الديوان، لامرؤ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دت.

ومما لا شك فيه فإن أي باحث تعترضه بعض الصعوبات والعوائق التي قد تعرقل السير الحسن في الإحاطة بموضوعه من كل الجوانب والزوايا، وهذا من صميم البحث وطبيعته، وهكذا هي البحوث في العلوم الإنسانية لما لها من علاقة وطيدة بالإنسان ومشاعره وهواجسه، لكن أبدا هذا لم يثننا عن المضي في خوض غمار هذه الرحلة الممتعة. لكن لا بأس أن نذكر بعض هذه الصعوبات التي حاولنا جاهدين لتذليلها، ضيق الوقت وتسارعه، قلة المراجع والدراسات المهمة المتعلقة بالبحث كله وبالتحديد في تحليل مستويات الزمان والمكان في البكائية الطللية.

وفي الأخير آن لعصا التطواف أن تحط رحالها مع ختام هذا البحث المتواضع، آملين أن نكون قد أعطينا لهذا الموضوع حقه من البحث والدراسة والتقصي والتحليل خدمة للبحث العلمي.

ولا يسعنا أخيرا إلا أن نحمد الله الذي أمدنا بالعون والتوفيق لإتمام هذا البحث كما لا يفوتنا أن نتقدم بخالص الشكر وموفور التقدير والاحترام للجنة العلمية التي ستعكف على مناقشة هذا البحث لتصويبه، دون أن ننسى السيد المشرف الذي بذل معنا جهودا مضنية لا يمكن إغفالها، فكان نعم الموجه والمصوب والحريص على أن يستوي هذا البحث على سوقه. والشكر موصول لكل أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ابن خلدون وكل الطاقم الإداري.

مدخل

الشعر الجاهلي المفهوم والخصائص

أولا: الشعر الجاهلي (المصطلح والمفهوم)

ثانيا: خصائص الشعر الجاهلي

ثالثا: بنية القصيدة الجاهلية

رابعا: فلسفة الزمان والمكان

تمهيد:

– الشعر في النقد العربي القديم:

لقد غدا الشعر العربي مدونة جمالية ووجدانية، لا مناص منها عند العرب مبنية على الذوق أساسا ولهذا قيل قديما: «شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله»[1] ومن هذا المنطلق «فإن الاختيار شكل من أشكال النقد لأنه يستند إلى ذوق المختار، فالمختارات تختلف باختلاف أذواق أصحابها، فما يمكن أن تقبله أنت قد يرفضه غيرك، لأن الذوق هو العامل الرئيسي في عملية الاختيار هذه»[2]، ولذلك قال الخالديان في كتابهما الأشباه والنظائر«ولعل غيرنا ممن يقرأ هذا الكتاب يرذل شيئا مما اخترناه، ويهجن شيئا وهذا غير مزر لنا ولا ناقص لنا، لأن لكل إنسان اختياره»[3]، ذلك أن الاختيار فردي وليس جماعي ومبني هو الآخر على الذوق، ولهذا غدا كل من الشعر ونقده ومختاراته مدونة ذوقية.

في متاهات الأدب تتسارع الكلمات لتلتقط جوانب الجمال والفن: «يظهر اختيار الشعر كأداة نقدية، ويمثل جوانب طبيعية لأنه يقاس على مفهوم التفاوت داخل القصيدة سواء كان ذلك في إطار الشاعر الواحد أو في سياق مجموعة من الشعراء»[4]، ويتعين أن ندرك أولا: «أن منهج الاختيار الشعري يعود إلى فترة زمنية قديمة، حيث برزت هذه الطريقة كأسلوب نقدي في العصر الجاهلي، مع ظهور الحركة الشعرية وازدهارها خلال تلك الحقبة، ولعب الاختيار الشعري دورا هاما في تطوير النقد

---

[1]– الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط5، 1985، ص:77.

[2]– منذر ذيب كفافي، الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، دراسة في الشكل والمضمون، جدار للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص:09.

[3]– الخالديان، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية المخضرمة، تحقيق: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1958، ص:262 -263 .

[4] – انظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، الأردن، د ط، 1997، ص:76.

الشعري حيث ساهم في تمييز الشعر الراقي من الغير متميز، والمميز من العادي وأسهم في تقديم المستوى الجودي للشعر»[1]، في ختام هذه النظرة على الاختيار الشعري يظهر بوضوح أنه ليس مجرد انتقاء كلمات، بل هو رحلة ذات طيات تاريخية وجمالية تشكل روح الشعر، وتزين أدبنا بلمسات فريدة.

انطلق ابن قتيبة في استكشاف أغوار اختيار الشعر وتأثيره، حيث تناول بعمق فنونه وأسراره، فلقد أفاد أن «عملية الاختيار لا تتسم بالتنوع العشوائي بل تتطلب مجموعة من الأسباب منها جودة اللفظ والمعنى، والدقة في التشبيه، ولقد أشار إلى أن الشعر المختار لا يكون كل شعر، بل يتطلب تحقيقا في عدة جوانب مثل أن يكون قائله الوحيد الذي قاله، و أن يتسم شعره بالندرة والقيمة، وأن يكون فريدا في معناه، وفي الختام يتم اختيار الشعر بمراعاة النبل والرفاعة التي يتمتع بها قائله»[2]، ذلك أن انتقاء الشعر والاحتفاظ به يتم يناء على شرف قائله، ورفعة شأنه.

يحتل الشعر مكانة بارزة في تاريخ النقد العربي كموضوع رئيسي للتأمل والتحليل «الشعر أفضل ما قالته العرب في حلها وترحالها، ففيه جمعت مآثرها وأمجادها وحفظت أيامها وأنسابها، وكان الشاعر يحتل مكانة رفيعة في قومه، وذلك لما يتميز به الشعر من تأثير كبير في النفوس فقد يرفع الوضيع، وقد يحط من قيمة الشريف»[3] فكان النقاد يفردون اهتماما خاصا بفنون وأساليب الشعر، وعرّفوه بتعريفات متباينة حيث قدم القدماء أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عاش في الفترة ما بين (100 و175ه)

---

[1]- منذر ذيب كفافي، الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، دراسة في الشكل والمضمون، ص:09.

[2]- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، د ط، 1966، ص: 84.

[3]- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2007، ص:14.

تعريفا يقول فيه: «إن الشعر هو الكلام الموزون المقفى على مقاييس العرب»[1] يظهر في هذا التعريف التركيز البارز على الوزن كسمة أساسية مميزة للشعر، ومع ذلك يتضح أن الشعر لا يقتصر على الوزن فقط، حيث ذهب الجاحظ الذي عاش حوالي سنة (159-255ه) إلى أن: «هو صياغة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير»[2] هذا القول يركز على أن الشعر فن قائم على الصنعة والإبداع ويعتمد على اختيار الألفاظ وتنسيقها بعناية، كما يعتمد على صياغة المعاني والتعبير عنها بطريقة بليغة ومؤثرة.

وفيما يخص ابن قتيبة الذي عاش بين عامي (213 و276ه) اختصر فهمه للشعر من خلال تحليله المركز لجوانب معينة مثل اللفظ والمعنى وذلك «باستناده إلى بعض الشواهد المحددة دون إيجاد منهج منطقي يوضح أهم المعايير التي تشكل أساس العملية الشعرية مثل الإيقاع والتصوير والخيال، يكتفي بتقسيم الشعر إلى أربعة أنواع وهي: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه، وضرب تأخر لفظه وتأخر معناه»[3] دون تحديد إطار منطقي يشرح تلك القواعد الأساسية للشعر، ومع ذلك فإن الشعر لا يقتصر على اللفظ والمعنى فقط.

بينما يطور قدامة بن جعفر مفهوم الشعر فيما اصطلح عليه في الثقافة النقدية العربية بحد الشعر فيما ذهب إليه ف: أكد «على أربعة عناصر أساسية يجب أن تتوفر في القول الشعري، وهي: اللفظ والمعنى والوزن والقافية، يعتبر الشعر عنده قولا موزونا مقفا يدل على معنى»[4] من خلال قوله يتبين لنا أن بهذه العناصر الأربعة يصبح الشعر عملا

---

[1]- محمد الدمنهوري، الحاشية على متن الكافي في علم العروض والقوافي، مطبعة التقدم العلمية، مصر، د ط، 1322ه، ص:13.

[2] - الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، ج3، د ط، 1969، ص:131.

[3]- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، ص:24 – 26.

[4]- قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1979، ص:17.

أدبيا متكاملا يعبر عن المشاعر والأفكار بطريقة جميلة متناسقة، حيث أنه أهمل عناصر أخرى لها قيمتها في القول الشعري.

أما حازم القرطاجني فيضيف عناصر أخرى للصناعة الشعرية لم تكن معروفة عند سابقيه من النقاد، حيث أنه استفاد من الفلاسفة لإدخال عنصرين هامين في تحديد مفهوم الشعر وهما عنصر المحاكاة والتخييل، يقول: «الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه، أو الهرب منه، لما يضمن حسن تخييل له، أو محاكاة مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن هيأة تأليف الكلام»[1] وعلى ضوء ما تقدم في هذه المقولة نرى أن الشعر عند حازم القرطاجني يتميز بانتظام في إيقاعه ووزنه، كما يؤكد أن الشعر يؤثر على المشاعر والعواطف، ويؤثر على الإرادة والسلوك، ويتميز بقدرة عالية على الإبداع والتصوير ومحاكاة الواقع والخيال، سواء كان ذلك بشكل مستقل أو من خلال أسلوب فني جيد.

بناء على ما تم طرحه، نستنتج أن الشعر العربي هو تعبير فردي يعكس ذوق صاحبه، وهو أداة نقدية تقيم جودة القصيدة، ينقسم إلى فنون وأساليب متنوعة مما أثار اهتمام النقاد وجعلوه موضوعا لتعريفات مختلفة، فمن ناحية ركز أحمد الفراهيدي على تعريف الشعر من خلال الوزن، بينما اعتبره الجاحظ فنا قائما على الصنعة والإبداع، أما ابن قتيبة فقد ركز على اللفظ والمعنى، بينما أضاف حازم القرطاجني عنصري المحاكاة والتخيل، وعلى الرغم من اختلاف تعريفات الشعر إلا أنه يظل جزءا كبيرا في النفوس، ويحتل مكانة بارزة في ثقافتنا العربية، هذا إذا ما تعلق الأمر بالشعر عموما في حده العربي المتفق عليه عند جميع نقادنا العرب، وهو ما يجعلنا في صدد التفاؤل حول مفهوم هذا الشعر إذا اتصل بمرحلة اصطلح عليها بالجاهلية وحدد بمئة وخمسين سنة قبل الإسلام، إذن ما هو المعنى الأساسي للشعر في العصر الجاهلي؟

---

[1]- حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، د. ط، 1966، ص:71.

– مصطلح الجاهلية.

في ظل متاهات التاريخ ينبثق لنا جذور حضارات، وفي ساحة العرب قبل ظهور الإسلام تتوارث أوراق الزمن فترة تاريخية تعرف ب: الجاهلية تلك الفترة التي شكلت قاعدة حضارية واجتماعية معينة قبل أن ينار عليها منار الإسلام برسالته الهادفة، من خلال هذا سنسلط الضوء على تفاصيل هذا الزمن حيث سيطر الجهل، وغياب التوجيه الديني، فننتقل خلال أروقة التاريخ لنستلم تراث الجاهلية، ونتعرف على جذور مفهومها العميقة.

عرفت الفترة الزمنية التي سبقت الإسلام ب: العصر الجاهلي، اشتق هذا المصطلح من كلمة (جاهلية) التي وردت في القرآن الكريم، وتعني الجهل والضلال حيث إنها: «تعبير عن فترة زمنية محددة في التاريخ العربي، وقد اعتمد مؤرخو العرب على تسميتها بعصر الجاهلية، أو العصر الجاهلي استنادا إلى كلمة الجاهلية التي ذكرت في القرآن الكريم، وتعني الحقبة الزمنية التي سبقت الإسلام»[1]، ذلك أن العرب في تلك الحقبة كانوا يعيشون في حالة من الجهل، وفي ظل غياب التوحيد الديني، والتخلف الثقافي.

في سبر أغوار تاريخ العرب قبل الإسلام، نجد أنفسنا أمام فترة غامضة وجامحة في الجاهلية فـ: "المصطلح" إذن ارتبط ببيئة عربية قديمة غائرة في القدم تُجهل بداياتها التاريخية لذلك نجد «جواد علي يقسم الجاهلية إلى جاهلية بعيدة، وهي الجاهلية التي ولد فيها إبراهيم عليه السلام، وجاهلية قريبة وهي الجاهلية التي ولد فيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم»[2] تشير هذه الحقبة الزمنية إلى الحقبة التي سبقت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم والتي امتدت لنحو قرنين من الزمن، يعكس هذا التقسيم التطور التاريخي

---

[1]– السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1971، ص:13.

[2]– جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط4، 1968، ج:01، ص:40.

والتحولات الاجتماعية التي حدثت على مر الزمن، يُظهر هذا التقسيم أيضا الأهمية التاريخية للرسالة النبوية، وكيف أحدثت تحولا كبيرا في المجتمع.

في غمرة أنين الأزمنة والتباينات التاريخية يتسلل الحكم السديد ليعكس لنا صورة تاريخية حية تحمل تفاصيل مفصلة عن عصور مضت أحدها هو عصر الجاهلية كما أفصح عمر فروخ «اسما أطلقه القرآن الكريم على العصر الذي سبق الإسلام لأن العرب في تلك الحقبة كانوا أهل جاهلية يعبد بعضهم الأوثان، ويتنازعون فيما بينهم، ويثأر بعضهم من بعض، ويئدون أحيانا أولادهم، وكانوا يشربون الخمر، ويجتمعون على الميسر، وهكذا أن الجاهلية كانت من الجهل الذي ضد الحلم، لا من الجهل الذي ضد العلم»[1]، فالكلمة هنا تنصرف إلى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم، فالحلم سيد الأخلاق، وتندرج تحته جميع الخصال الحميدة، وهو أرقى درجات السلوك الإنساني الحكيم، والجهل الذي ينافي الحلم معناه السفه والحمق والتهور وعدم القدرة على ضبط النفس، وسرعة الانفعال، وهذه كلها كانت صفات منتشرة بين العرب قبل الإسلام.

إن هذه الحفريات وإن كانت قليلة لا تقوى على سد هذه الثغرة، «فالجاهلية فترة تتكشف فيها الإنسانية وبداية الوعي المتحضر والمتجاوز للمرحلة الوحشية... ومن جهة حضارية وتاريخية يسعنا أن نعد الجاهلية حجر الأساس في صرح الثقافة والحضارة العربيتين، ولذا بات من المتعذر فهم العصر الراهن دون استيعاب الحقبة الجاهلية وذلك لحلول العابر في الراهن... الحاضر هو جملة الانطفاءات التاريخية التي لا ترد إلا كي تتجدد، صحيح أن الماضي تحول إلى رماد إلا أن في منطويات هذا الرماد تكمن جذوره في إضاءة الحاضر وتحريكه»[2]، بناء على ما سبق يظهر أن الجاهلية ليست فترة تاريخية بل فصل حيوي يكشف عن تحولات الإنسانية وبزوغ الوعي.

---

[1]- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج:07، د ط، د س، ص:73.

[2]- يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د ط، دمشق، سوريا 1975، ص:17.

مع ختام رحلتنا في أروقة الجاهلية ننقل أفكارنا إلى مفهوم الشعر الجاهلي بكل تعقيداته ورونقه الفريد، هل يكمن سر هذا الشعر في قدرته على تجسيد روح العصور القديمة بأسلوبه الرفيع؟ هل تعكس قصائد الجاهلية جمالية الحياة وتعقيداتها بما يثير التفكير العميق ؟ دعونا ننغمس في تفاصيل الشعر الجاهلي وفهم أبعاده المتعددة مع السعي للإجابة عن هذا السؤال الملهم في هذه الرحلة.

أولا: الشعر الجاهلي المفهوم والمصطلح.

في غمرة البحث عن جذور الشعر، يبرز الشعر الجاهلي كنافذة تاريخية إلى فترة مهمة في تاريخ الأدب العربي، يعكس هذا النوع من الشعر الفرادة الثقافية والاجتماعية للعرب في الفترة الجاهلية فيمكن تعريفه «بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها، حيث عكس العرب من خلاله صورة حقيقية دون تزويق ولا تشويه»[1] فهو ما يمنحنا فهم أعمق لتلك الفترة في تاريخ العرب وهو جزء لا يتجزأ من تراثهم الثقافي.

من رحم الأزمنة الغابرة، يلوح الشعر الجاهلي شعلة ساطعة، يحكي حكاية للعرب بكل تفاصيلها، إذ «يعتبر وثيقة خطيرة الشأن ومصدرا أصليا لدراسة عصر بأكمله من حيث الحياة فيه والقيم التي أنتجها، لذلك لم يكن غريبا أن يقولوا الشعر ديوان العرب فهو جامع شؤونهم وشجونهم وما في حياتهم من مظاهر ونشاطات واهتمامات»[2]، «حيث كانت للعرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها»[3] فهو ليس مجرد ديوان، بل تراث مكنون يحمل جمال اللغة وثراء الأفكار، ويعكس جوانب متعددة من تاريخهم وقيمهم.

---

[1]- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، د ب، ط1، 1996، ص:186.

[2]- حسن يوسف، الشعر الجاهلي في دراسات المستشرقين الألمان، دار الوفاء، د ب، ط1، 2013، ص: 13.

[3]- الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، ص:72.

الشعر الجاهلي هو فن شعري عربي يمتد إلى الفترة الجاهلية قبل الإسلام، وقد «ذهبوا إلى أن عمره يمتد بين القرن والقرنين قبل ظهور الإسلام على أكثر تقدير، إذ نجد أن الجاحظ يقدر أن عمر الشعر العربي قصير مع عمر الإنسانية السحيق، فهو حديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه هو امرؤ القيس بن حجر، والمهلهل بن ربيعة، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الإسلام، – خمسين ومائة عام–، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[1].

يظهر إن الشعر الجاهلي ليس مجرد فن شعري بل سجل حيوي لحياة العرب قبل الإسلام «قد مثل مصدرا موثوقا للمعلومات، حيث اعتمد علماء اللغة على هذا الشعر في وضع قواعد النحو، والتأكد من صحتها، ولجأ علماء الفقه ومفسرو القرآن الكريم إلى أن الشعر الجاهلي لبيان معاني الكلمات وورودها في اللغة»[2]، فهو ليس مجرد مرآة تعكس جمال اللغة وعمق المشاعر بل كان وثيقة تاريخية استفاد منها علماء اللغة وعلماء الدين.

نجد تجسيدا ملحميا في أشعار العرب الجاهليين لحياتهم وتقاليدهم حيث أن الشعر الجاهلي «وثق معاركهم ووصف طبيعة حياة البيئة الجاهلية وما تحتويه من جماد وحيوان إضافة إلى ذكر أسماء الفرسان وآبار مياههم، وغيرها من الأحداث، كما اشتمل هذا الشعر على العديد من الشعراء هم شعراء المعلقات، أمثال امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى بالإضافة إلى العديد من دواوين الشعراء»[3] بهذا السياق يمثل الشعر الجاهلي نافذة

---

[1]– محمد بلوحي، آليات الخطاب النقدي العربي، الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2004، ص:25.

[2]– الشعر الجاهلي، خصائص الشعر الجاهلي، أغراض الشعر الجاهلي، 2024/09/31، 12.58 Rttps// w.w.w.twenkl.com.

[3]– الشعر الجاهلي، خصائص الشعر الجاهلي، أغراض الشعر الجاهلي، 2024/09/31، 12.58 Rttps// w.w.w.twenkl.com.

إلى حياة العرب الجاهليين، حيث يشكل ببراعة ملحمية جوانب متعددة من تاريخهم وثقافتهم مما يجعله تراثا أدبيا غنيا يحمل بين سطوره جوانب هامة من هويتهم الفريدة.

ثانيا: خصائص الشعر الجاهلي.

من خلال دراستنا للشعر الجاهلي نستنتج أنه يتميز بمجموعة من الخصائص من ناحية الشكل والمضمون: «حيث أنه مثالا لوحدة التعبير والأسلوب، إذا يكاد التعبير عن كل ما عبر عن هذا الشعر يتفق أكثر في ألسنة الشعراء اتفاق البيئة الصحراوية التي عاشوا فيها وهو نمط القول مستقل من آداب الأمم الأخرى»[1] يظهر كلوحة فنية تتميز بفرادتها وغناها الثقافي مما يجعله جزءا لامعا في تاريخ الأدب العربي.

كانت البادية بيئة الشعر الجاهلي لذلك كان الشعر مرآة للحياة البدوية، يدور حول الجمل والطلل «فالشعر الجاهلي هو إنتاج وجداني مطبوع ومهما طالت القصيدة، أو قصرت فقد جاءت تقليدا ثابتا في أوزانها، وقوانينها، وكانت البادية هي بيئته، مع نبوغ عددا من أهل الوبر الذين كانوا يسكنون الخيام في بواديهم وصحاريهم»[2]، وعلى هذا الأساس نرى خصائص الشعر تدور حول البادية.

في العصور القديمة ازدهرت الشعرية العربية بشكل ملحوظ خلال الفترة الجاهلية، كان الشعر جزءا أساسيا من الحياة الاجتماعية والثقافية، حيث كان يعبر عن مشاعر الفرح والحزن، ويروي القصص والتاريخ، «إذا يعتبر الشعر الجاهلي مرآة انعكست فيها مظاهر الحياة العربية، فقد مثل البيئة خير تمثيل، تناول كل جانب من جوانب الحياة البادية، فتحدث عنه بتفصيل، صور ما فيها من جبال ووهاد وطرق معقدة، ووصف الآثار والدمن، كما وصف السحب والأمطار والسيول ومدافع المياه، رسم مشاهد

---

[1]- ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص:649.

[2]- عمر فروخ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط2، 1984، ص:23.

كثيرة لحيواناتها وفص لكل حيوان قصة» [1]، كما تضمن «وصف الطلل والناقة والفرس والصيد ووصف رحلاتهم وما يركبونه» [2]، ونستطيع أن نتبين من نماذج الشعر الجاهلي ما يتميز به من خصائص على كل من الشكل والمضمون.

1- الخصائص المعنوية:

أ- الصدق وتصوير العاطفة وتمثيلها:

الشعر وثيقة يعبر بها الشاعر عن حياته وبيئته، يتميز بصدق تعبيره، وتمثيل عواطف الشاعر، فهو يتحدث بما يشعر به، فقد وصف المعارك واعترف بالهزيمة، ويعترف بقوة خصمه، ويصف شجاعاتهم «عرب الجاهلية فطروا على البساطة والبعد عن التصنع شأن أهل البادية لذلك فهؤلاء الشعراء لا يتصنعون في كلامهم، وإنما يقولون ما خطر ببالهم ويصورنه كما يتمثل لمخيلتهم» [3] تجتمع هذه الخصائص لتخلق تجربة فنية فريدة تتغلغل في عمق العواطف وتجسد جمال الحياة والطبيعة بشكل يلامس الروح.

ب- الخيال القريب:

اتسع خيال الشاعر في العصر الجاهلي، باتساع أفق الصحراء التي كان يعيش فيها «فالشعر الجاهلي شعر أخيلة وتصوير، والتصوير أصل من أصول صناعة الشعر التي لم يخل منها الشعر الجاهلي، وصور الشاعر الجاهلي القريبة وخياله قريب وصادق التصوير، وإذا عمد الشاعر في خياله على التشبيهات والإشعارات أكثر من اعتماده على انتزاع الصور»[4]، «قد كان أيضا عن الشاعر في الحضر وربما فاق خيالهم مثيلهم في البادية كالأعشى وامرؤ القيس والنابغة، حيث جنحوا بخيالهم في وصف البرق والمطر» [5]، في

---

[1]- يحي جبور، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط5، 1986، ص:191.

[2]- يوسف عطا الطريقي، شعراء العرب العصر الجاهلي، أهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006، ص:16.

[3]- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة العربية، د ب، ط1، 1980، ص:58.

[4]- المرجع نفسه، ص:64

[5]- يوسف عطا الطريقي، شعراء العرب العصر الجاهلي، ص:20.

ختام هذا يظهر الشعر الجاهلي كعمل إبداعي يعكس تفرد خيال الشعراء وإبداعهم في التصوير.

ج- الإطالة والاستطراد:

في الشعر الجاهلي كانت الإطالة والاستطراد لعكس غنى اللغة وتفرد التعبير «كان يحمد في الشاعر الجاهلي أن يطيل القصائد وقد يخرج الشاعر أحيانا إلى موضوعات تتعلق به من قرب أو من بعد، وهذا يسمى الاستطراد» [1]، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذي يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر، "وربما كان هذا هو السبب في أن القصيدة طويلة لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ... ومن حقنا أن نعطيه اسما جديدا مشتقا من حياته وهو التنقل السريع» [2] يتبين لنا أن الشعر ينبض بالحياة والتنوع، وفي هذا التفرد يكمن سحر الاستطراد الذي يعزز جمال وفرادة القصائد الجاهلية.

د- النزعة الوجدانية:

الشاعر مطبوع في شعره على النزعة الوجدانية يصف نفسه وشعوره « الشعر الجاهلي وجداني في الدرجة الأولى يصف نفس قائله وشعوره حتى أن الشاعر القديم كان إذا عرض لبحث موضوعي واقعي، كوصف الصيد والحرب أو كالحكمة والرثاء، لونه بشعوره هو فانقلب الموضوع الواقعي في شعره موضوعا وجدانيا » [3]، في ختام هذا السياق يتجلى أن الشاعر الجاهلي لا يكتفي بتسليط الضوء على محيطه الواقعي بل ينقلب الموضوع الواقعي إلى تجربة وجدانية عميقة.

---

[1]- عمر فروخ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ص:25.

[2]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط1، د س، ص:244.

[3]- عمر فروخ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ص:33.

هـ – البساطة:

الحياة البدوية حياة فطرية تسودها البساطة «كذلك كانت البيئة الجاهلية، وكذلك كان أثرها في الشعر الجاهلي، جرى الشاعر الجاهلي على طبعه وسجيته فلم يتكلف القول فيما لم يشعر به، ولا تكلف الإحاطة والشمول ولا التخريج والتعليل ولا التعقيد والمعاصاة فيما شعر به » [1] يظهر الشعر الجاهلي جمال العفوية والبساطة حيث يسرد الشاعر مشاعره بصدق دون تعقيد مما يعكس روح الحياة البدوية التي تفرض بساطتها على الكلمات وتعبر عن المشاعر بصدق ونقاء.

2– الخصائص اللفظية:

أ– غرابة الألفاظ وجزالتها:

في غنى عن التعقيدات والتفاصيل يتألق الشعر الجاهلي ببساطته الجميلة ونقائه، يعكس هذا النوع من الشعر حياة البدو بروح فطرية حيث تنسجم الكلمات بجزالة وغرابة محملة بتعابير صادقة تجعلها تنغمس في أعماق الأحاسيس والتجارب "إذا قرأنا نحن اليوم بعض الشعر الجاهلي وقعنا في أكثره على كلمات غريبة ... وهذه الكلمات كانت يومذاك فصيحة وعلى أوجهها وأدواتها وآلاتها، على ما نرى في وصف طرفة للناقة في معلقته على أن الكلمة الغريبة قد تكون جميلة في اللفظ نحو ريّال (النعام)، وقد تكون وحشية أو حوشية مستكرهة ي اللفظ مثل بعاق (مطر)"[2] على الرغم من تحديات الكلمة الغريبة يظل هذا الشعر خالدا في رونقه وعمقه الذي يحاكي الحياة بكل تجاربها ومشاعرها.

ب– متانة التركيب وبلاغة الأداء:

في الأدب الجاهلي تشكل متانة التركيب وبلاغة الأداء أساسا قويا يبرز جمال اللغة وفنون التعبير، ف"التركيب في الشعر الجاهلي متين، أي صحيح يجري على قواعد

---

[1]– المرجع نفسه، ص:33.

[2]– عمر فروخ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ص:25.

اللغة العربية، لا ضعف فيه من تقديم لفظ في غير محله، أو تأثير لفظة إلى غير مكانها الذي تقتضيه أساليب العرب أو زيادة حشو لا فائدة فيه، أو حذف لغير سبب نحوي"[1]، في سياق النقاش الحالي يتبين لنا أن قوة بناء العبارة وفصاحتها تمثل ركنا أساسيا في الشعر الجاهلي لترسم لنا لوحة فنية رائعة يتجلى هذا في انسجام الكلمات وبناءها، حيث يبني الشاعر بنية قوية تتماشى مع قواعد اللغة العربية وتفرق كلماته لحنا جميلا ينقل براعة الفكر وعمق الإحساس.

ج- العناية والتنقيح:

كان الشعر في زمن الجاهلية يتسم بالعفوية والطبيعية، حيث كان الشاعر يُصاغ بحرية ويعبر عن مشاعره وأفكاره بشكل ينبع من داخله« وبما أن الجاهلي كان يجري في شعره على سجيته وطبعه فإنه لم يتكلف عادة فيما كان ينظمه، بل كان يلقيه إلى الناس كما يخطر له ويدور في خياله، ولكن كان هناك نفر آخر يأخذون شعرهم بالعناية والتنقيح وقد سماهم رواة الأدب عبيد الشعر لأنهم يتكلفون إصلاحه بعد نظمه ويشغلون به حواسهم وخواطرهم » [2]،«فلقد لقبوا امرؤ القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وألقها، ولقبوا ربيعة بن سفيان بالمرقش» [3] ختاما يظهر الشعر في الجاهلية بتنوعه بين العفوية الحرة والاهتمام بالتنقيح مع تألق رواة الأدب في صقل الكلمات وإبراز جماليتها.

هذا عن تاريخية الشعر الجاهلي ومراحله الطفولية الأولى وبواكيره وبداياته المرحلية شكلا ومضمونا وهو ما يجعلنا نتسائل عن بنية هذه القصيدة في تناسقها وترتيبها اللغوي والتصويري إذ نرغب في فهم كيف تتكون بنية القصيدة الجاهلية ؟

---

[1]- المرجع نفسه، ص:26.

[2]- عمر فروخ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ص:26.

[3]- يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب العصر الجاهلي، ص: 18.

ثالثا: بنية القصيدة الجاهلية:

تتميز القصيدة الجاهلية ببنية داخلية محددة تتكون من عدة أقسام رئيسية لكل منها وظيفة فنية محددة إذن كيف تشكلت ومن ماذا تكونت؟.

1- مقدمة (المطلع):

تعد مطالع القصائد الجاهلية بوابة شعرية تدخل القارئ إلى عوالم القصيدة، وتحدد مسارها وموضوعها ونغمتها، وهي ظاهرة فنية برزت مع نشأة القصيدة العربية القديمة، وظل الشعراء يصدّرون قصائد على امتداد العصور الأدبية التالية، إذ تنوعت هذه المقدمات تبعا لموضوعاتها وأغراضها، ومن أشهر أنواعها: (المقدمة الطللية، والمقدمة الغزلية، ومقدمة الضغائن وبكاء الشباب، ومقدمة وصف الطيف)، والذي يهمنا في هذه الدراسة المقدمة الطللية، إذن ما هي، وكيف تساهم في إثراء المعنى الشعري؟.

أ- المقدمة الطللية:

هي الجزء الأول من القصيدة وتُستخدم للدخول للموضوع بشكل تدريجي، وقد تتضمن هذه المقدمة وصفا للمكان أو الزمان أو التعبير عن مشاعر الشاعر من خلال وقوفه على الأطلال، حيث يستحضر ذكريات الماضي «إذ يلاحظ أنها من أكثر المقدمات انتشارا في صدور قصائد الجاهليين إذ تتوالى صفوف في دواوينهم حيث تبلغ العشرات، على نحو ما نقرأ في ديوان عبيد أو طرفة أو النابغة الذبياني أو زهير بن أبي سلمى، أما ديوان بشر بن أبي حازم فقاربت مقدماته الطللية العشرين ويكاد يكون أكثر من وصف الأطلال، وينبغي أن نلاحظ أيضا أنه لا فرق بين شعراء البادية وشعراء المدينة في أصول هذه المقدمة وعناصرها»[1] فهي عنصر شعري هام اتسمت به القصائد العربية في العصر الجاهلي.

ولنأخذ مثالا للتدليل على ما ذكرنا، ونستشهد على هذا النوع بأبيات من قصيدة امرئ القيس التي يقول في مطلعها:

[1]- عطوان حسن، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط1، د س، ص: 166.

أَلا عِـــم صَـــباحاً أَيُّهـــا الطَلَـــلُ البـــالي وَهَل يَعِمَن مَن كانَ في العُصُـــرِ الخـــالي

وَهَـــل يَعِمَـــن إِلّـــا سَـــعيدٌ مُخَلَّـــدٌ قَليـــلُ الهُمـــومِ مـــا يَبيـــتُ بِأَوجـــالِ

وَهَل يَعِمَن مَن كـــانَ أَحـــدَثُ عَهـــدِهِ ثَلاثـــينَ شَـــهراً في ثَلاثَـــةِ أَحـــوالِ[1]

يرجع ظهور المقدمة الطللية إلى العصر الجـاهلي، حيـث كـان الشـعراء الجـاهليون كثيري الترحال مما جعلهم يشتاقون إلى ديـارهم وأحبتـهم، إذ كـانوا يبتـدئون قصـائدهم بوصف ديارهم وأطلالها لذلك نجدهم «يعبرون عن مجموعـة مـن الأفكـار تكـاد تكـون متشابهة عندهم جميعا، فهم دائما يتذكرون هـذه الـديار عنـدما كانـت عـامرة بأهلـها، وكانت تدب فيها الحياة قبل أن تتحول إلى أطلال مقفرة موحشـة لا حيـاة فيهـا، وهـذه موازنة مؤلفة من زمنين متناقضين، زمن ماض مفرح، وزمن حاضر مؤلم» [2].

تشغل هذه المقدمة أهمية لدى النقاد والباحثين والدارسين قـديما، وقـد حـاول كـل فريق أن يفسرها ويصوغ رأيه فيها، وفقا للدكتور حسن عطـوان تتعـدد أشـكال المقدمـة الطللية عنده إلى ثلاثة أنواع رئيسية وهي: «إما أن يأتي الشـاعر بصـورة الطلـل بمفردهـا، أو صورة الأطلال وصورة صاحبته، وإما الشـكل الثالـث فيكـون منظـر الطلـل القـديم ومنظر وصف الإبل تسير في الصـحراء» [3]، إذ تعـد هـذه الأشـكال الثلاثـة مكونـات أساسية في البنية الداخلية للقصيدة الجاهليـة، حيـث تسـاعد الشـاعر علـى التعـبير عـن مشاعره وأفكاره بشكل عميق ومؤثر تضفي على القصيدة قيمة فنية عالية.

نتيجة لهذا فإن المقدمة الطللية تؤدي وظيفة خلق الجو الشعري الـذي يمـنح الشـعراء القدرة على الدخول إلى أبواب القصيدة التي يستهلها الشـعراء بالمشـاعر والأحاسـيس الـتي ترتبط بحياته وذكرياته الماضية، إذ نجد ابن قتيبة يقـول في محاولتـه لتحديـد بنـاء القصـيدة «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيـه بـذكر أهلـها الظـاعنين

---

[1]- امرؤ القيس، ديوان، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط2 ،2004، ص:135.

[2]- كفافي منذر ديب، الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، دراسة في الشكل والمضمون، ص.219

[3]- عطوان حسن، مقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي، ص:123 – 126.

عنها... »[1] نستنتج من خلال هذا أن القصيدة الجاهلية تقوم على المطلع، أي المقدمة فلقد سطر لنا التاريخ نخبة من الشعراء وشعرهم الذين بلغوا الذروة في نظم الشعر، حسب المعلقات التي توحي بمدى عبقرية قائلها وذكائه وحذقه في نظمه لهذا الشعر.

منذ العصور القديمة كان الشعراء يولون اهتماما بالغا بمطالع القصيدة، فهو المدخل الرئيسي لها، وهو بمثابة البوابة التي تفضي إلى رحلة غنية بالمشاعر والأفكار، لذا حرصوا على إضفاء جاذبية فنية على مطالعهم، وجعلوها مفتاحا لجذب انتباه السامع، وعلى أساس هذا لاحظ النقاد أن: «تناغم الشطر والعجز وترابط المعنى بينهما يؤدي إلى انسجام المطلع مع موضوع القصيدة»[2] فجمال المطلع مرهون بهذا التناغم لأنه يؤدي إلى الانسجام والترابط والتداخل، وكل هذا من أهم العوامل في بناء القصيدة.

نتيجة لذلك اهتم الشعراء بالمطالع بعناية خاصة في أي عمل أدبي، فقد كانوا يقولون: «أحسنوا معاشر الكتاب بالابتداءات فإنهم دلائل البيان »[3]، أما بالنسبة للقصيدة فكانوا يولون اهتماما لبداياتها كما أشار ابن رشيق لذلك بقوله: «إن الشعر كالقفل وله مفتاح »[4] ، وقال أبو هلال العسكري: «المطلع هو مفتاح القصيدة، حيث يعد المطلع هو أول ما يلفت الانتباه في القصيدة يحمل وزنا كبيرا في التأثير عليها، ويعتبر كواجهة ومقدمة لها فإن كان المطلع متقنا وجذابا وجيدا فيؤدي هذا بشكل فوري على التأثير على السامع مما يؤدي إلى تشويق وانتظار المضمون وما بعده»[5]، وكما سلف ذكره أن القصيدة في شكلها العام تحتوي على مقدمة أو ما يسمى بالمطلع، ومن ثم يأتي

---

[1]- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر،ص:84- 85.

[2]- يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص:43.

[3]-أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، 1419ه، ص: 489.

[4]-ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه، تحقيق: محمد يحي الدين عبد الأمير، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1961، ص:192.

[5]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 496.

الغرض الأساسي، كما نستخلص علاقة المطلع بمضمون القصيدة الذي يندرج تحت الانتقالات والتخلصات.

2- الانتقالات في القصيدة الجاهلية:

تعد القصيدة الجاهلية من أقدم وأهم أنواع الشعر العربي وتتميز بخصائص تميزها عن غيرها من أنواع الشعر ومن أهم هذه الخصائص بنية القصيدة الجاهلية والتي تتكون من المقدمة والعرض والختام، فبعد الحديث عن المقدمات تحضر الانتقالات والتخلصات في القصيدة الجاهلية، حيث يسميها ابن رشيق في عمدته بالتخلص، إذ يقول: "من الناس من يسمي الخروج تخلصا وتوسلا"[1]، ثم يقول: " وأولي الشعر بأن يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى آخر ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان"[2] كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذار بها إلى النعمان بن المنذر:

فَكَفكَفتُ مِني عَبرَةً فَرَدَدتُها ... عَلى النَحرِ مِنها مُستَهِلٌ وَدامِعُ

عَلى حينَ عاتَبتُ المَشيبَ عَلى الصِبا ... وَقُلتُ أَلَمّا أَصحُ وَالشَيبُ وازِعُ

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال:

لكِنَّ هَما دُونَ ذِلكَ شاغِلٌ ... مَكانَ الشِّغافِ تَبتَغِيهِ الأَصابِعُ

وعِيدُ أَبِي قابوسَ في غَيرِ كُنهِهِ ... أَتانِي وَدُونِي راكِسٌ فالضَّواجِعُ

ثم وصف حاله عندما سمع من ذلك فقال:

فَبِتُّ كَأَنّي ساوَرَتني ضَئيلَةٌ ... مِنَ الرُقشِ في أَنيابِها السُمُّ ناقِعُ

يُسَهِّدُ مِن لَيلِ التَمامِ سَليمُها ... لِحَلي النِساءِ في يَدَيهِ قَعاقِعُ

تَناذَرَها الراقونَ مِن سوءِ سُمِّها ... تُطَلِّقُهُ طَوراً وَطَوراً تُراجِعُ[3]

---

[1]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص: 236.

[2]- المرجع السابق، ص: 236.

[3]- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، د ب، ط2،ص: 237 – 239.

نستخلص أن التخلص أو الانتقال أحد أهم العناصر في القصيدة الجاهلية، وهو فن من فنون الشعر يقصد به الانتقال من المقدمة إلى الغرض بشكل سلس وجميل دون أن يشعر القارئ أو المستمع بالتعسر أو التكلفة، وبهذا اكتسبت القصيدة طابعا متميزا خاصا بها في العصر الجاهلي خصوصا، مما جعل الشعراء يتخذون رداء لأشعارهم وذلك لما تحتويه القصيدة من الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار ووصف الرحلة إلى أن يصل الشاعر إلى الغرض الأساسي في القصيدة لتأتي بعدها الخاتمة.

3- خاتمة القصيدة:

بعد الحديث عن مقدمات القصائد الجاهلية وكذلك الانتقالات، نأتي إلى مناقشة ختام القصائد حيث تعتبر الخاتمة من أهم أجزاء الهيكل الفني، فهي الأبيات الأخيرة التي يختم بها الشاعر قصيدته أو مقطوعته، والتي تحمل في طياتها لإيحاءات ومعاني عميقة، وقد اهتم بها النقاد القدامى كما أولوها عناية فائقة ، حيث إنهم قرروا أن جمال الشعر في حسن الافتتاح ولطف الانتهاء، وهذا ما جاء به ابن رشيق القيرواني "الانتهاء هو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله أن يكون محكما، لا يمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعد أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له، وجب أن يكون الآخر قفلا له"[1] وتأسيسا على ذلك يفضل أن يكون الاختتام إيجابيا، لهذا اهتم الشعراء والنقاد بمطالع القصيدة وختامها وكذلك بما تحتويه من أغراض أساسية تتناسب مع مضمون القصيدة، وذلك لإنتاج شعري ذو جودة وقيمة عالية.

4- أغراض القصيدة الشعرية الجاهلية:

عقب دراسة شاملة للشعر الجاهلي في عدة مصادر، يظهر بوضوح أن الأفكار الرئيسية والأغراض التي اتسم بها الشعر الجاهلي تتجلى وتتضح في: «الفخر والحماسة والمديح والهجاء والرثاء والغزل والوصف، ولسنا نحرص في هذا المقام أن نستقصي جميع الأمثلة حول كل غرض من الأغراض فهو عمل إحصائي لا يهمنا، وإنما نستقصر حول

[1]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعراء وآدابه، ص:239.

كل الخطوط العريضة لكل موضوع [1] وسنسعى التعرف على أهم المعاني التي ذكرها الشعراء في كل غرض.

أ- الفخر:

هو غرض من أغراض القصيدة الجاهلية، إذ يعد من أهم أغراض الشعر الجاهلي، حيث يتمثل في تمجيد الإنجازات والبطولات والميزات الخاصة، غالبا ما يظهر من خلال إدعاء الفضائل لنفس أو مجموعة بشكل لا يمكن للجميع تحقيقه بسهولة ومن "خير الأمثلة له ملعقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وهما في الفخر القبلي، أما معلقة طرفة ومعلقة عنترة فهما في الفخر الشخصي، والنوعان في معلقة لبيد، كما قد ورد الفخر في كثير من قصائد الشعراء المذكورين من أصحاب المعلقات وغيرهم مثل عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل وسلامة بن جندل"[2] فقد كان الشاعر الجاهلي لا يخلو شعره من الفخر، حيث كان يفتخر بذاته ويتغنى بأمجاد قومه ويشيد بقوهم وعزهم، ويسجل مفاخرهم متباهيا بها.

ب- الرثاء:

يعتبر فنا في عالم الشعر حيث يعبر عن الحزن العميق والأسى بشكل صادق مما يجعله من المواضيع المحركة للنفس، وهو ينبع من خلجات القلب الحزينة، ويحمل في طياته لوعة وحسرة مرة لذلك فهو من الموضوعات القريبة للنفس "فقد كان يبدو الحزن عليهم واضحا حينما يفقدون عزيزا وكل أفراد العشيرة عزيزة فتحرك الشاعرية تعبير الأسى العميق الذي عمهم والخسارة الفادحة التي نزلت بهم وبغيرهم ممن كان الفقيد ملاذا لهم"[3] فعلاوة على ذلك كانت الحياة الجاهلية حياة حرب ودماء وإغارات وبالتالي عبر

---

[1]- صلاح رزق، الشعر الجاهلي والسياق والملامح، دار الغربي، القاهرة، مصر، د ط، 2005، ص:213.

[2]- على الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص: 364.

[3]- المرجع نفسه، ص:394.

الشعراء من خلاله على مشاعر الحزن والألم لفقدان أحبائهم سائلين العزاء في التذكر والتخليد.

ج- الغزل:

تربع الغزل على عرش الشعر الجاهلي فكان متقنا بين جميع الشعراء، حيث اعتمدوه كزخرفة تزين قصائدهم، فكان يشكل بداية ممتعة وجذابة لجذب القارئ لذلك نجد: "الافتتاحية بجميع أنواعها وبخاصة الغزلية للقصيدة كالمقدمة الموسيقية للأغنية توقظ مشاعر الشاعر والمغني، وتبعث في كل منهما النشاط الروحي الفني، فيسري في جوانحه مسرى الدم في شرايين جسمه وتلعب أحاسيسه شيئا فشيئا إلى أن يصل إلى أوج الانفعال"[1] فكان بمثابة الجوهرة الثمينة التي تزين قصائد الشعراء.

د- الهجاء:

هو نوع أدبي شعري غالبا ما يكتب عندما يرغب الشاعر في التعبير عن الكراهية والأشياء من شخص آخر فهو على "عكس الفخر يعددون فيه بعيوب الخصوم والأعداء فيذكرون ما في تاريخهم من مخاز، وما نزل بهم من هزائم، وما حل بهم من خسائر أو عار يرمونهم بأقبح العادات وذميم الصفات، وكثيرا ما كان يتخلل هجاءهم وعيدا وتهديدا، وقد كان الهجاء يوجه إلى الأعداء في معرض الفخر، أو في ثنايا المدح لأن في تحقير الأعداء والحطة من شأنهم رفعة للمفتخر أو الممدوح"[2].

وعلى ضوء ما تقدم فقد تنوعت أغراض الشعر حسب أحوال الحياة وما تقتضيه أحوال البشر في كل عصر من العصور، وذلك حسب الهدف الذي يقال الشعر من أجله، وعليه فقد عرجنا على كل من تاريخية الشعر الجاهلي من بواكره إلى نهاية ما قبل الإسلام أتممنا الموضوع بالبنية فعالجنا مضمونها الفني والجمالي في علاقته بالجاهلية وهذا

---

[1]- المرجع السابق، ص: 413.

[2]- المرجع نفسه، ص:373.

الطرح لا يخدمنا إلا إذا ارتبط بفلسفتي الزمان والمكان لدى الإنسان عموما، إذن ما الذي يعنيه الزمان له؟ وماذا يكون المكان بالنسبة له؟.

رابعا: فلسفة الزمان والمكان

1- الزمان: "المصطلح والمفهوم".

أ- الزمان لغة:

يشير مفهوم الزمان في اللغة إلى تقديم الأحداث والحالات، وهو عنصر أساسي في التعبير عنها، يستخدم للإشارة إلى فترة معينة سواء كانت قصيرة أو طويلة، حيث عرّفه صاحب معجم مقاييس اللغة بقوله: "الزاي والميم والنون أصل واحد يدل على الوقت من الزمن ومن ذلك الزمان وهو الحين قليله أو كثيره، يقال زمان وزمن والجمع أزمان وأزمنة"[1]، ويُعد الدهر من الألفاظ الموازية والمعادلة للزمن، إذ نجد تعريف أبي هلال العسكري للزمن والد هر واحد، إذ يقول في تعريفه لمفردة الدهر: "إنه جمع أوقات متتالية مختلفة أو مختلفة، وهو نفسه تعريفه لمادة الزمن"[2]، من خلال هذين التعريفين يتضح لنا جليا تعدد الألفاظ الدالة على الزمان إلا أنهم مختلفين في الصياغة ولكن المضمون واحد.

وجاء في معجم الوسيط: «أزمن المكان أقام به زمنا، أطال عليه الزمن، يقال مرض مزمن وعلة مزمنة، والزمن الوقت قليله وكثيره، ويقال السنة أربعة أزمنة، أقسام وفصول»[3]، يتضح من خلال ما سبق أن مفردة أزمن تحمل معاني متعددة مرتبطة بالزمن، مثل البقاء في مكان، أو استمرار مرض، أو مرور زمن طويل، وجاء في معجم

---

(1)- ابن فارس، أبو الحسين بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، (باب الزاي والميم وما يثالثهما)، تحقيق: عبد السلام هارون، ج3، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، 1993، ص: 15.

(2)- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3، 1979، ص:263.

(3)- إبراهيم مصطفى ،أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط،مادة(مكن)،تحقيق.مجمع اللغة العربية،دار الدعوة،ط4 ،2005ص:401.

العين الزمن بمعنى: «الزمان والزمن ذو الزمانة والنقل زمن يزمن زمنا وزمانة، والجمع الزمان في الذكر والأنثى، وأزمن الشيء طال عليه الزمان»[1].

ب- الزمان اصطلاحا:

يُعد المفهوم الاصطلاحي أحد أهم الأدوات التي يستخدمها الباحثون والنقاد في مجال البحوث الإنسانية لفهم وتحليل الظواهر والقضايا المختلفة، ولهذه الأهمية التي ينطوي عليها في قدرته على حسم الإشكالات المعقدة، نرى أنه من الضروري الوقوف عند المفهوم الاصطلاحي للزمان، فقد عرفه عبد المالك مرتاض بقوله: «مظهر وهمي بزمن الأحياء والأشياء متأثر بماضيه الوهمي غير المرئي، غير المحسوس، والزمن كالأكسجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا، وفي كل مكان من حركاتنا، غير أننا لا نحس به ولا نستطيع أن نلمسه أو نراه»[2]، يعكس هذا التفكير الرؤية الفلسفية للزمان ككيان يتداخل بحياتنا، دون أن نشعر به، مما يضفي عمقا على فهمنا للواقع.

في حين نجد مفهوم آخر للزمان وهو يخالف المفهوم التقليدي للزمان كشيء موضوعي وثابت يرى أنه: "المظهر النفسي اللامادي، والمجرد اللامحسوس، ويسد الوعي من خلال ما نشط عليه، وتأثر به الخفي غير الظاهر لا من مظهره في حد ذاته، وهو الوعي الخفي لكنه متسلط ومجرد ويتمظهر في الأشياء المجسدة"[3]، فهو ليس شيئا خارجيا عن الإنسان، بل هو مظهر من مظاهر النفس البشرية وبذلك ليس مجرد ساعات وأيام، بل هو أكثر من ذلك، هو وجود لا يمسك بأيدينا يختبيء في خفايا الفكر، وينساب بين لحظاتنا، يملأ الوعي بمفرده، يتجسد في الأشياء المحسوسة.

---

[1]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، (مادة الزاي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص:195.

[2]- عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي لحكاية جمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1993، ص:157.

[3]- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني الثقافي والفنون والأدب، عالم المعرفة، الكويت، عدد 24، ص: 198 – 201.

الزمن ليس قياس للفترات الزمنية، بل هو جوهر أعماق الحياة وإطارها، ويمكن تعريفه بأنه: "المادة المعنوية المجردة التي يتشكل منها إطار كل حياة، وحيز كل فعل وكل حركة، بل إنها لبعض لا يتجزأ من كل الموجودات وكل وجوده وحركتها، ومظاهرها وسلوكها"[1]، وهكذا ينسج الزمان خيوطه الدقيقة في نسيج حياتنا ليشكل إطارا لكل تجربة ويحدد مسار كل لحظة.

لطالما شغل مفهوم الزمان عقل الإنسان مثيرا تساؤلات عميقة حول طبيعته، سنغوص في عقول الأمم القديمة لنكشف عن تصورات فريدة، فالزمان عندهم نلفيه ليس له أهمية حيث "بدت الأحكام الأخلاقية والجمالية والرياضية في نظرهم فوق كل زمان، بل يأخذ عندهم أهمية سالبة"[2] مما يعكس هذا تمسكها بقيمها الجوهرية عبر العصور وهذا ما يبرز تفانيها في تعزيز هذه القيم العالية في حضاراتها وتراثها المتأصل.

أما المجتمعات الحديثة فإنها تنظر إلى الزمان نظرة متنوعة ومتفاوتة، حيث تظهر نظرة مختلفة اتجاه مفهوم الزمان بين الثقافات والحضارات المختلفة، ف: "الزمان عند الأمم الشرقية متقطع يتكثف في النهار ويتلاشى في الليل، والزمان الليلي في هدا الحال يمكن اعتباره ميتا إذ راعينا النوم الثقيل الذي يعتور فيه الإنسان وكثير من الحيوان، والدليل على ذلك أن الكثير من المؤسسات الاقتصادية يتوقف نشاطها في الليل، لذا فهو زمان من الناحية الموضوعية فحسب، أما من الناحية الذاتية فهو ليس زمانا لأننا لا نعيشه"[3]، يظهر لنا مما سبق أن الزمان في هذه الثقافات وجها موضوعيا يختلف عن وجهته الذاتية، حيث يصبح غير ملموس أو مشترك في تجربة الحياة اليومية.

---

[1]- الشريف جميلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ص:39.

[2]- حسام الدين الألوسي، مجلة عالم الفكر، عدد خاص عن الزمن، المجلد الثاني، عدد 02، 1975، ص: 109.

[3]- عبد المالك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1982، ص: 112 – 113.

بينما تصور الحضارات الغربية المعاصرة مفهوم الزمان بطريقة مختلفة ومتباينة "إذ نراه ممتدا مكثفا في النهار ومتواصلا أثناء الليل بغير انقطاع، كما أنه يختلف كذلك من حيث المدلول، فالماضي عندك مثلا لا يعني حتما ما يعنيه عنده، فقد سخرته الشعوب والثقافات لأدوار متمايزة ومتغيرة، فكان عند هذا القيم على الهوية واستمرارها، وكان عند ذلك رمزا باليا للقديم المرفوض"[1]، يعكس هذا التباين التطورات الثقافية والاجتماعية التي شهدها العالم عبر العصور مما يجعل الزمن عنصرا مرنا يستوعب معان ومفاهيم متعددة ومتغيرة.

بشكل عام يظهر مما سبق التنوع والتباين في فهم الزمن بين المجتمعات القديمة والحديثة وبين الثقافات الشرقية والغربية تعقيد العلاقة بين الإنسان ومفهوم الزمن، فهذا المفهوم يدرك بتفاوت حيث يتغير معناه ومدلوله بين الحضارات والأزمنة المختلفة مما يبرز تطور الفهم البشري لهذا المفهوم وتأثيره على حياتنا اليومية، إذن ومن خلال هذا ننتقل إلى عرض سريع لأراء بعض الفلاسفة حول هذا المفهوم، وما هي أهم الأفكار التي طرحها الفلاسفة حول المفهوم الفلسفي للزمان؟.

ج- المفهوم الفلسفي للزمان.

يمثل الزمان قضية من أهم القضايا الفلسفية، فكان دائما مثار تساؤل من المفكرين والفلاسفة منذ أقدم العصور، حيث يعد عنصرا أساسيا في حياة البشر، يرى أفلاطون سنة (347-427ق.م): «أن الزمان أوجده الله تعالى مع بداية خلقه للموجودات المحسوسة، فالزمان لم يكن موجودا من قبل، فقبل خلق الله للعالم لا يوجد ليل، ولا نهار، ولا شهور، ولا سنة، ولكن عندما خلق الله العالم كانت هناك أيام وليل ونهار، وخلق الله العالم وشكله على هيئة صورة وهذه الصورة متحركة للأبدية وخلقه الله ليكون

[1]- عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، د ط، تونس، 1988، ص: 08.

صورة لها»[1]، ومن خلال هذا يتبين لنا أن الزمان ليس مجرد مفهوم فارغ، بل هو جزء لا يتجزأ من الخلق والوجود.

في عالمنا المعقد يتجلى الزمن كواحد من أكثر الجوانب غموضا وتعقيدا، ومن بين الفلاسفة الذين ساهموا في تفسير هذا الغموض هنري برغسون، فهو يرى بأن الزمن: "يتصف بالديمومة والسيلان، وعدم الانقطاع، والفلسفة البرغسونية تعتمد على تواصل حالات الزمن الثلاث، الماضي، والحاضر، والمستقبل، ويبدوا أن برغسون يعد التغيير الذي يصيب الإنسان في الزمان يؤكد على فكرة سيلان الزمن"[2] من هذا المنطلق يتضح لنا أن الزمن ليس مجرد إطار زمني ثابت، بل هو تجربة ديناميكية متواصلة.

في عالم الفلسفة والفكر العلمي تثير العلاقة بين الزمان والحركة تساؤلات فلسفية مثيرة للجدل واحدا من أبرز الفلاسفة الذين اكتشفوا هذه العلاقة بعمق العالم الكندي(185ه-256ه) بناء على فلسفته يرى أن الزمان: "مدة تعدها الحركة فإن لم تكن حركة لم يكن زمان"[3]، "والحركة هنا تعني حركة الأجسام ، وربط الكندي بين الزمان والحركة ، فإن كان زمان كانت حركة، وإن كان لم يكن زمان لم يكن حركة"[4] "وبهذا التعريف فالزمان عند الكندي عدد الحركة ومعدود بها"[5]، وعلى ضوء

---

[1]- هانم محمد فكري عكاشة، مفهوم الزمان بين الفكر الفلسفي اليوناني والفكر الفلسفي الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، مصر، عدد 100، 2022، ص: 176.

[2]- غاستون ياشلار، جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، د ط، د ب، 1982، ص:18.

[3]- الكندي، رسائل فلسفية، تحقيق: محمد عبد الهادي بورية، ق1، مطبعة حسان للنشر، ط2، القاهرة، مصر، 1987، ص: 18.

[4]- هانم محمد فكري عكاشة، مفهوم الزمان بين الفكر الفلسفي اليوناني والفكر الفلسفي الإسلامي، ص: 174.

[5]- فيصل نذير عون، الفلسفة الإسلامية في الشرق، دار الثقافة للنشر، القاهرة، مصر، د ط، 1982،ص: 139.

ما تقدم يصبح الزمان مفهوما حيويا يشكل جزءا لا يتجزأ من تجربتنا الحية ، حيث تلاقي الحركة والزمان لتشكل أساسا لفهمنا للعالم ومكانتنا فيه.

الزمن ليس مجرد سلسلة من اللحظات المتتابعة بل ينظر إليه كأحد العوامل المحركة للتغيير والتطور في الواقع، وهذا ما جاء به هيجل، فالزمن عنده: «ذو طابع ديالكتيكي، ذلك أن فلسفته الديالكتيكية التي وجودها (أ) ثم وجود نقيض لها هو (ب) وهذان النقيضان يصيران إلى حالة جديدة مركبة من النقيضين، فالمكان ذو طابع إيجابي ونقيضه الزمان والمركب الذي يصار إليه الزمان والمكان هو الحركة»[1] يعكس هذا المفهوم في عقلية هيجل تفاعل الأفكار والأحداث والتطورات مما يجعلها أكثر اندماجا وترابطا مع بعضها البعض.

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الزمان هو ذلك المفهوم المتنوع الذي تشكل عبر اللغة والاصطلاح والفلسفة، فما بين لحظات عابرة ودهور خالدة، وفهم لغوي دقيق، ورؤى فلسفية عميقة تجلى لنا الزمان وكأنه نسيج متشابك يحرك حكايات الوجود، وهو لغز معقد يثير فضولنا ويشحذ عقولنا، وجد الزمان قبلنا ويستمر بعدنا شاهد على صيرورة الكون وتغيراته، إنه ذلك المحرك الذي يدير عجلة الحياة، ويغير مسار الأحداث، وبعد أن استكملنا استكشاف هذا المفهوم بتنوعه وعمقه حان الوقت لفتح بوابة جديدة نطل من خلالها على عالم (المكان)، إذن ما هو المكان؟ وكيف عرفه أهل اللغة والاصطلاح؟

2- المكان: "المفهوم والمصطلح"

لقد كرس النقد والفكر والفلسفة اهتماما واسعا لمصطلح (المكان) عبر الزمن، وحظي بانتباه متجدد من قبل العقول المفكرة، ولهذا السبب أدى دور فعال في حياة

---

[1]- علي عبد المعطي محمد، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 1984، ص: 119.

الإنسان حيث يعتبر المحرك الرئيسي للأحداث، ونظرا لتباين أراء العلماء بشأن تعريفه، ونظرا لأهميته نرغب في تحديد المفهوم اللغوي والاصطلاحي له، إذن فماذا نعني بالمكان لغة واصطلاحا؟.

أ- المكان لغة:

تمّ توضيح مفهوم كلمة المكان في العديد من المعاجم اللغوية منها لسان العرب الذي يقول فيه صاحبه: «المكان، الموضع، الجمع أمكنة، وأماكن، وتوهموا الميم أصلا حتى قالوا، تمكن في المكان ، ومضيت مكانتي، ومكينتي، أي طيتي، والاستكانة، الخضوع، وفلان يكين على فلان بين المكانة، والمكانة الموضع» [1]، والموضع يشير إلى موقع نسبي مثل أعلى أو أسفل، أو يمين أو يسار، ويضيف ابن منظور أيضا تحت مادة: (كون): "الكون الحدث، لا تحرك أي مات، والكائنة الأمر الحادث، وكونه: أحدثه محدث"[2]، يربط ابن منظور (630 ه-711ه) بين الكون والحدث بشكل وثيق، حيث يرى أن الكون هو إتيان الحدث، أو وقوعه وأنه يحدد الشيء الحادث.

كما أننا نجد تعريفا دقيقا يقول فيه الراغب الإصفهاني: "المكان عند أهل اللغة الموضع الحاوي للشيء"[3]، يركز هذا التعريف على الجانب المادي للمكان كونه موضعا يحتوي شيئا ما، وفي المجمع الوسيط نجد تعريفا آخر مفاده: "المكان المترلة، يُقال رفيع المكان، والمكان هو الموضع ، وفي الجمع أمكنة، وهو في الأصل تقدير الفعل مفعل من الكون لأنه موضع لكينونة الشيء فيه"[4].

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مادة: م.ك.ن، ج:13، ط3 ، بيروت، لبنان،1414ه، ص: 365.

[2]- المصدر نفسه، مادة الكون، مج: 05، ص:3960.

[3]- الراغب الإصفهاني، مفردات غريب القرآن، مادة (مكن) تحقيق: محمد أحمد خلف الله، الإنجلو مصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1970، ص: 471.

[4]- إبراهيم مصطفى أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، مادة: (مكن)، ص :310 .

تزخر اللغة العربية بمفردات غنية تعكس ثراء مفهوم المكان، وتعدد أبعاده: "المكان، جمع أمكنة، وأمكن الموضع أو المكانة، جمع مكانات، المترلة"[1]، كما يقدم الزمخشري(467ه-532ه) تعريفا مهما للمكان يقول فيه: "مكنته من الشيء، وأمكنته منه فتمكن منه واستمكن، ويقول المصارع لصاحبه مكن من ظهرك، وأما أمكن الأمر فمعناه أمكنني منه نفسه"[2]، فالمكان عنده هو الموضع الذي يمكن الشيء من شيء آخر.

كما يقدم الزبيدي(1145ه-1205ه) تعريفا شاملا للمكان يتضمن أبعادا لغوية وفلسفية، ويذهب الزبيدي للقول بأن المكان أوسع وأشمل، فهو عنده: "الموضع الحاوي للشيء، وعند المتكلمين عرض وهو اجتماع جسمين حاوي ومحوٍ، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطا بالمحوي"[3]، فالمكان هو الجوهر الذي يحدد العلاقة بين الجسمين الحاوي والمحوي، والمكان عنده هو الفراغ الذي يشمل الشيء.

ويعرفه أبو البقاء الحنفي الكفوي (ت 1094م) في كتابه (الكليات) بأنه: "الحاوي للشيء المستقر من التمكن"[4]، يشير هذا التعريف إلى أنه الفراغ الذي يحتويه ما بداخله، وأن هذا الشيء لا يتحرك من مكانه، وقد وردت لفظة المكان في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ((وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا))[5]، وقوله سبحانه: ((حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

---

[1]- حميد بودشيش، الأصيل القاموس العربي الوسيط، دار الراتب الجامعية، بيروت، ط1، 1997، ص: 685.

[2]- الزمخشري، أبو القاسم جار الله، أساس البلاغة، تحقيق: محمد أسيل، عيون السرد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1998، ص: 223.

[3]- مرتضي الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (مكن)، ج:9، دار صادر، د ط، بيروت، لبنان، 1966، ص:348 .

[4]- أبو البقاء، الكليات،تحقيق محمد تامر و أنس الشامي ، دار الحديث القاهرة طبعة القاهرة، 2014 ص:332

[5]- سورة مريم: الآية: 15.

مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ))[1]، وقوله عوجل: ((وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا))[2].

تقدم التعريفات اللغوية المكان مدخلا لفهم العلاقات بين الأشياء وبعضها البعض، وتساعد على ربط اللغة بالعالم الحقيقي مما يثري المعرفة اللغوية والفلسفية على حد سواء، فيا ترى ما مفهوم المكان اصطلاحا؟.

ب- المكان اصطلاحا:

منذ فجر التاريخ سعى الإنسان لفهم العالم من حوله، وفهم موقعه، وتموقعه فيه، ولعب (المكان) أساسا لفهم العلاقات بيت الأشياء وبعضها البعض، وتحديد موقع الإنسان في الكون، حيث قام غاستون باشلار بتحديد مفهومه بوضوح، يقول: "المكان الأليف هو ذلك البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة ، وهو المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتشكل في حياتنا"[3]، وهذا ما يشير إلى المكان الذي يحمل معنا خاصا لدى الفرد ويرتبط بطفولته وذكرياته.

يتفق غالب هلسا مع غاستون باشلار في أهمية بيت الطفولة كرمز للمكان الأليف في قوله: "البيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكييف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه، وهو كما يصفه باشلار يركز الوجود داخل حدود تمنح الحماية"[4]، فهو رمز للانتماء والهوية الشخصية.

يُعد الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) أول من صرح به اصطلاحا، وهذا ما ذهب إليه حسن مجيد الربيعي بقوله: "أول استعمال اصطلاحي للمكان في الفلسفة قد صرح به

---

[1]- سورة الحج: الآية:21.

[2]- سورة الفرقان: الآية: 13.

[3]- غاستون ياشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، لبنان، 1994، ص: 06.

[4]- المرجع نفسه، ص: 09.

أفلاطون، إذ عده حاويا وقابلا للشيء"[1]، وهذا يعني أن المكان هو الفراغ الذي يشغل الأشياء، وهو ضروري لوجودها، ويتغير حسب الشيء الذي يحويه، على سبيل المثال المكان الذي يشغله إنسان يختلف عن المكان الذي يشغله كرسي.

وترى اِعتدال عثمان أن المكان:"لا يقتصر على كونه أبعادا هندسية وحجوما، فضلا عن ذلك نظاما من العلاقات المجردة يستخرج من الأشياء المادية الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني أو الجهد الذهني"[2]، بمعنى آخر هو بناء معرفي يتشكل من خلال التفاعل بين الواقع الحسي والتجربة الذهنية.

يتفق أرسطو مع أفلاطون في التصوير العام للمكان من حيث الوجود والكينونة، فالمكان عنده "موجود ماد هنان شغله وتتحيز فيه وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة والتي أبرزها حركة النقلة من مكان إلى آخر وهي مفارق للأجسام المتمكنة فيه وسابق عليها ولا يفسد بفسادها"[3] فهو يشكل جزءا أساسيا من فهمنا للعالم من حولنا.

كما يولي الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض رحمه الله أهمية قصوى للمكان في دراسته الأدبية والنقدية، ويقدم في كتابه (تحليل الخطاب السردي) تعريفا شاملا ومفصلا للمكان مشيرا إلى أنه: "كل ما عنى حيزا جغرافيا حقيقيا من حيث انطلق الحيز في حد ذاته على كل فضاء خرافي أو أسطوري، أو كل ما يُنْدُ عن المكان المحسوس كالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال والأشياء المجسدة مثل الأشجار والأنهار وما يصور هذه

---

[1]- حسن مجيد الربيعي، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشروق الثقافية العامة، ط1، بغداد، العراق، 1998، ص:09.

[2]- بسام علي أوبشير، جماليات المكان في رواية باب الساحة لسحر خليفة، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مج:15، عدد 02، 2007، ص: 273.

[3]- أرسطو طاليس، الطبيعة ، ت إسحاق بن حنين، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1994، ص:281.

المظاهر الحيزية من حركة أو تغيير"[1]، وبشكل عام يقدم مرتاض رؤية شاملة للمكان في الأدب ، فهو ليس مجرد مساحة فارغة أو حيز جغرافي بل هو كيان مجسد وديناميكي يؤثر ويتأثر بالعناصر المحيطة به.

يقدم يوري لوتمان تعريفا مميز للمكان مبتعدا عن مفهومه التقليدي كمساحة مادية قائلا: "إنه مجموعة الأشياء المتجانسة من الظواهر والحالات والوظائف والأشكال والصور والدلالات المتغيرة التي تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل الامتداد والمسافة"[2]، يعد مفهوما سيميائيا، أي يركز على الدلالات والمعاني التي تحملها العلاقات المكانية، وبعبارة أخرى لا يرى لوتمان المكان كمساحة مادية محدبة بل نظام معقد من العلاقات بين عناصر متجانسة.

احتل المكان مكانة بارزة في الفكر الإنساني فتنوعت مفاهيمه وتصوراته، لذلك نجد النقاد الإنجليز لم يكتفوا باستخدام المصطلح" (Place/Space) المكان والفضاء بل أيضا أضافوا مصطلحا آخر هو: (Locatin) أي (بقعة) للتعبير عن المكان المحدد لوقوع الحدث"[3] فكل منهم يشير إلى دلالة ومعنى محدد (Space) يشير إلى الفضاء العام، أي المساحة الشاملة التي تتضمن جميع الأماكن و Place يشير إلى المكان المحدد، أي المساحة المخصصة لوظيفة محددة أو ذات خصائص مميزة و Loction يشير إلى بقعة محددة داخل المكان.

المكان مفهوم معقد ومتعدد الأبعاد، وقد تنوعت تعريفاته عبر العصور والثقافات وبشكل عام يمكننا القول أنه نظام من العلاقات المجردة يتشكل من خلال تفاعلنا مع الأشياء المادية الملموسة لكن لا تقتصر عليها، كما أنه فضاء خرافي وأسطوري وكيان

---

[1]- عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص:245.

[2] -Youri lotmane. La structure du texte artistique. Trad francaise.ame fourite et autre. Fd.gualimard.1973.p:133.

[3]- سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1984، ص:76.

مفارق للأجسام لا يتأثر بوجودها أو فناءها، وحيز جغرافي حقيقي ومجموعة من موقع الحدث بدقة أكبر... ومنه قد تعددت آراء الفلاسفة حول مفهومه نظرا لأهميته كعنصر أساسي، وبالتالي ما هو مفهومه الفلسفي؟.

ج- المكان فلسفة:

أثارت قضية المكان جدلا كبيرا حيث أثارت انتباه الفلاسفة فظهرت أول مرة مصطلحات المكان في الفلسفة من خلال نظرية المثل، حيث يفسر ككيان غير حقيقي ويشكل موضوع التغيير، ففي سياق الظواهر الملموسة كما أشار أفلاطون: "عدّهُ الحاوي للأشياء وأخذ بعدا أكبر في جعله ما يحوي ذلك الشيء ويميزه ويحده، ويفصله عن باقي الأشياء"[1]، وبعبارة أخرى يرى أفلاطون أن المكان ليس مجرد فضاء فارغ، بل هو كيان محدد له خصائص مميزة تساعده على احتواء الأشياء وتميزها على بعضها البعض، ولتوضيح ذلك بشكل أفضل يمكننا ضرب مثال بسيط، لنفرض أن لدينا كتاب فالمكان الذي يوجد فيه الكتاب هو المكتبة، ولكن إذا نظرنا إلى الأمر بشكل أدق سنرى أن المكان الذي يوجد فيه بشكل محدد هو الرّف الثالث في الجهة اليمنى من المكتبة.

يختلف مفهوم المكان عند لايبنتز اختلافا كبيرا عن مفهوم المكان عند أفلاطون فهو يرى أن: "المكان مجرد شيء ظاهر وفكرة مضطربة، ويستند في إثبات ذلك على حقيقة كل جزء من المكان مماثلا للأجسام الأخرى"[2]، فالمكان عنده لا يمتلك أي خصائص جوهرية وهو نسبي، ومن المكان ممكن تصور عوالم بديلة لها خصائص مكانية مختلفة تماما من عالمنا.

---

[1]- محمد عبيد صالح الميهاني، المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار الأفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص:18.

[2]- جعفر الشيخ عبوش، السرد ونبوءة المكان، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015، ص:26.

بينما يرى الفيلسوف هيوم أن المكان ليس كيانا مستقلا، بل هو مجرد طريقة ينظم بها العقل تجربتنا الحسية، يقول: "المكان مؤلف من أنات ولحظات ونقاط منفصلة بوصفه الطريقة التي ترتب وفقا لها النقاط الملونة المحسوسة الواحدة إلى جانب الأخرى"[1]، يجادل هيوم بأننا لا نستقبل أي انطباعات حسية مباشرة للمكان لما ندركه من خلال حواسنا هو مجرد نقاط ملونة وليس أي شيء يشبه المسافات أو الاتجاهات.

كما يرى الفيلسوف الألماني كانط بأن: "المكان هو مجرد صورة أولية ترجع إلى القوة الحساسة الظاهرة التي تشمل حواسنا الخمس"[2]، فهو يعتقد أن المكان هو طريقة ينظم بها العقل تجربتنا الحسية.

يقدم أرسطو في فلسفته مفهوما للمكان يختلف اختلافا جوهريا عن المفاهيم الحديثة، فهو يتصور "المكان وعاء يحوي الأجسام لكنه لا يختلط بها كما أنه لا يفسد بفسادها، إذ يقول إنه الحد اللامتحرك المباشر الحاوي أو السطح الحاوي من الجرم الحاوي المماس للسطح الظاهر للجسم المحوري"[3]، فهو يرى بأن المكان هو الحد الذي يحيط بالجسم مباشرة لكنه لا يتحرك معه ولا يشبهه بالسطح الداخلي لجسم ما يحوي جسما آخر، ويعتقد أنه ينتمي إلى الجسم الحاوي وليس إلى الجسم المحمول ويتلامس مع السطح الخارجي له.

ويواصل أرسطو في تفسيره للمكان فيقف مفصلا في المفاهيم الخاصة به قائلا: "إذا ميزنا بين ما هو نسبي في ذاته وما هو نسبي بغيره، فيجب أن نميز بين المكان المشترك الحاوي جميع الأجسام والمكان الخاص بكل جسم على حدة، فمثلا أنت في السماء لأنم في الهواء والهواء في السماء، وأنت في الهواء لأنك على الأرض والأرض في الهواء، وأما

---

[1]- منصور نعمان نجم الدين مي، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1999، ص: 18.

[2]- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص: 276.

[3]- محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1987، ص: 171.

هذا المفهوم يستنتج أرسطو أن المكان نوعان، مكان مشترك يوجد فيه أكثر من جسم واحد، ومكان خاص يوجد فيه كل جسم على حدة"[1].

أما الفلاسفة العرب فقد أسهموا هم كذلك في تعريف المكان، ومن هؤلاء الكندي الذي يقول: "المكان هو نهايات الجسم، ويقال هو التقاط أفقي للمحيط والمحيط به وهو السطح الذي هو خارج الجسم، والذي يحوي المكان"[2]، إذ يشبه المكان بالخط الفاصل بين سطحين حيث يمثل السطح العلوي المحيط (الفراغ)، والسطح السفلي المحاط به (الجسم).

استنادا إلى كل ما سبق، فإن الجزم باختلاف المفاهيم حول المكان والزمان يظل من المستحيل التوصل إلى مفهوم شامل متكامل يلبي جميع السياقات، فهما متغيران يتطلبان التفكير الفلسفي المشترك لفهمهما بشكل كامل، حيث لم يستنتج الفلاسفة الوصول إلى ترسيخ للوصول لأبعاد الزمان والمكان إلا من خلال التفاعل المتباين بينهما، إذ نتحول الآن لاستكشاف مفهومهما في الشعر الجاهلي، وهل يعبر الشعراء الجاهليون على فهم مختلف لهما؟، وهل يعكس الزمان في الشعر الجاهلي تقديرا مختلفا؟، وهل يعتبرونه كمفهوم ثابت أم يعتبرونه مرنا ومتغيرا؟، وكيف يمكن تصوير الزمان في القصائد في الشعر الجاهلي؟، وما الرسائل التي يحملونها فيما يتعلق بالزمن؟.

---

[1]- محمد أبو زيان وحربي عباس عطيبو، دراسات في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص:67.

[2]- سميح دغيم، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، ج:2، مكتبة لبنان، ط1، 1998، ص: 1307 – 1308.

الفصل الأول

فلسفة الزمان في الشعر الجاهلي

المبحث الأول: الزمان في الشعر الجاهلي

المبحث الثاني: تجليات فلسفة الزمان في المقدمة الطللية

المبحث الثالث: مستويات الزمان ودلالاته في البكائية الطللية

أولا– الزمان في الشعر الجاهلي:

شغل الزمان حيزا هاما في وجدان الشاعر العربي في العصر الجاهلي، وظهر ذلك جليا في مختلف القصائد ، حيث اتخذ مفهوم الزمان أشكالا رمزية ودلالات عميقة أثرت على بناء القصيدة وتوجيهها وبالتالي فـ:«إن المسك بأطرافه والوقوف عند أبعاده في القصيدة الشعرية يُمكن الدارس من التعرف على طبيعة حياة الشاعر وبيئته، ومن ثم فإن دراسة الزمن تفضي إلى الوقوف على جوهر هذه الحياة بكل تشابكاتها وتجلياتها، لأن دراسته في التجربة الشعرية الجاهلية هي دراسة الحياة القديمة في جوهرها»[1]، لهذا فإن الزمان ليس مجرد محصلة للمضي قِدَم بل هو ذاكرة تروي قصة البشر وتشكل هويتهم.

من المؤكد أن الزمان ليس مجرد وحدة قياسية فحسب، بل هو تجربة شخصية تشكلها العواطف والمشاعر ومن هنا يكمن جوهر الإنسانية وتنوعها في تجاوبها مع الزمان فبهذا «إن الإنسان في هذه الحياة هو الذي يعطي الزمان دلالته الموضوعية والذاتية فهو يعيش الزمن الموضوعي الذي تحدده الساعات والتقاويم، كما يعيش الزمان الذاتي الذي تحدده مشاعره النفسية التي يحسها وحالته الجسدية التي يشعر بها، فالهموم والحزن تجعلانه يعيش زمانا سرىعا خاطفا»[2] نتيجة لذلك يصبح الإنسان سيد الزمان لا أسيره فهو الذي يضفي عليه المعنى ويشكله بمشاعره وتجاربه.

يتجلى لنا من خلال ما تم تقديمه أن: «الزمان في الشعر العربي بعدان، بعد نفسي وبعد رياضي والذي يهمنا في هذه الدراسة هو البُعد النفسي لأن البعد الرياضي يتساوى تقريبا لدى كل البشر لكونه مضبوطا بالدقائق والساعات والأيام،... في حين تلقي البُعد النفسي يتجلى في درجة الإحساس لدى الشاعر إزاء ما يحيط به»[3]، وبشكل عام

---

[1]– باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي،ص:69.

[2]– كريم زكي حسام الدين، الزمان الدلالي دراسات لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية. مكتبة الأنجلو مصرية، ط 1، القاهرة، 1991، ص: 16.

[3]– باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 69.

يتراقص الزمن على إيقاع نفسية الشاعر يتلون بألوان مشاعره اتجاه الوجود. فهو ليس مجرد مفهوم جامد بل هو انعكاس لعالمه الداخلي يتشكل برؤيته للحياة و تجاربه الشخصية.

من ناحية أخرى غاص الشاعر العربي القديم في تأملاته حول الزمان ذلك المفهوم العميق الذي يلف حياتنا ويشكل مسارها وفي هذا المجال يقول **محمد زكي العشماوي**: «كان للشاعر العربي القديم موقفه من الزمان الذي يتجسد عنده بالدهر أو هكذا كان يرمز للزمن بهذه الكلمة، وكانت تعني لديه الخطر الذي يهدد الإنسان بوصف الزمان عاملا مهددا للبقاء والحياة معا»[1] ومن خلال ما تقدم نستطيع أن ندرك أن الزمان ليس مجرد سياق للحياة، بل هو عنصر فلسفي يلقي بظلاله على مفهوم الوجود والبقاء.

في رحاب الشعر الجاهلي، حيث تتجلى عبقرية اللغة العربية وتزهر إبداعاتها ينتصب عنصر الزمان راويا لحكايات تلك الحقبة العريقة لذا «يُعد الزمان عنصرا مهما ضمن عناصر بناء القصيدة العربية الجاهلية، فقد اتخذ الشعراء الجاهليون منه أداة للتعبير عن مختلف مظاهر حياتهم وأحداثها من حروب وأيام عاشوها فالهدف من دراسة الزمن في القصيدة الجاهلية عامة ومقدماتها خاصة يمكننا من الكشف عن حقيقة تلك الحياة والبيئة التي يعيشها الشاعر»[2] فالزمن عند الشاعر الجاهلي «زمن نفسي تلونه الذات بألوانها فإذا القلق والخوف من أبرز سمات الحياة في الجزيرة العربية»[3] وعليه تصبح دراسة الزمن ضرورة لفهم عوالم الشاعر بشكل عميق وبوابة لفهم عوالم ذلك العصر.

---

[1]– محمد زكي العشماوي، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، ص: 194.

[2]– فتيحة قيعص، شعرية الزمن في مقدمة القصائد الجاهلية من خلال نماذج مختارة، جامعة محمد الصديق بن يحيا، جيجل سنة 2020م، ص: 37 – 38.

[3]– عبد الإله الصائغ، الزمن عند شعراء العرب قبل الإسلام، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، العراق، د ط، 1982م، ص: 240.

نتيجة لما سبق احتل الزمان مكانا مرموقا لدى الشعراء الجاهليين فقد وصفوه وصفا حسيا صادقا جميلا، واهتموا به وأعطوا له نصيبا وافرا من العناية، «ومن دلالة عناية الجاهليين بظاهرة الزمن أنهم في مجال تصوير بعض وقائع حياتهم وأحداثها كانوا يستخدمون الكلمات الدالة على الزمان وكثيرا ما كانوا يذكرون الوقائع مقترنة بكلمات كـ "اليوم"، "الليل"، "الصباح"... نحو يوم الحرب، يوم السفر و الرحيل... على سبيل المثال إنهم يستخدمون كلمة "اليوم" ليتداعى دوام الحرب طوال الأيام»[1] وهكذا نستطيع القول أن الزمان لم يكن مجرد عنصر زمني في شعر الجاهليين، بل كان روحا نابضة في قصائدهم وظفوه بمهارة لخدمة أغراضهم الشعرية والفنية.

يتضح من خلال الشعر الجاهلي أهمية الزمن في تسليط الضوء على تجارب البشر وتاريخهم، «كانوا يسمّون حروبهم ووقائعهم أياما، لأنهم كانوا يتحاربون نهارا فإذا جنّهم الليل أوقفوا القتال حتى يخرج الصباح وتسمى هذه الأيام أي الحروب غالبا بأسماء *البقاع والآبار التي نشبت بجانبها»[2] وهكذا نرى أن الزمن لعب دورا محوريا في الشعر الجاهلي، حيث شكل إطارا لتجارب البشر وتاريخهم وخلّد ذكرى حروبهم ووقائعهم فكان شاهدا على بطولاتهم وتضحياتهم وسجلا حيا لتاريخهم العريق.

علاوة على ذلك اتخذ الشعراء من الزمان، ريشة لرسم لوحات شعرية خالدة تجسد صراعاتهم الداخلية وانشغالهم بفلسفة الحياة والموت مثالا على ذلك فإن:«دراسة النصوص الجاهلية تبين لنا أن الشعراء الجاهليين لا يزال يهتمون بظاهرة الزمان، حيث يتناولونه في التعابير المختلفة الدالة عليه كالزمان والدهر.. وبالرغم من ملازمة الزمان

---

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص: 62.

[2]- المرجع نفسه، ص: 65.

* أسماء البقاع: جمع بقعة والبقعة هي القطعة من الأرض تتميز مما حولها، مثل يوم بدر التي وقعت في زمن الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بجانب بئر بدر وهي لرجل يدعى بدر ينظر: ابن منظور لسان العرب 1988، ج 13، ص: 133.

بالبداية، لكن أول ما نلاحظ في ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يكن مهتما بالتساؤل عن بداية الزمان وإنما كان مهتما بنهايته من حيث أنه تمثل في شعوره مشكلة ذاتية هي مشكلة الموت»[1] وبالتالي نرى أن الزمن قد شكل هاجسا مركزيا في الشعر الجاهلي مما انعكس ذلك على مختلف جوانب شعره.

بعد استكشافنا لمفهوم الزمان في سياقات مختلفة، نعود مجددا لنعمق النظر في مشاعر الشاعر الجاهلي اتجاه هذا المفهوم المسيطر نظرا لهذا فلقد،كان الشاعر الجاهلي ضائقا بالزمن بَرِمًا به ذلك أن تصوره قدر محتوم لا مفر منه فهو حين يوافي الإنسان يتعلق بأدنى الأسباب المؤدية إليه ومن ثم اقترن مفهوم الزمان لديه بالمعاناة والموت وأصبحت لذلك كلمات مثل: "الدهر"، "الزمن" – "القدر" من أكثر الكلمات في هذا الشعر اتصال بالموت وإيحاءا به أو تعبيرا عن ألوان من المعاناة التي يتعرض لها الإنسان في حياته ولا يستطيع لها دفعا»[2] وهكذا نستطيع القول أن الزمان اِحتل مكانة مركزية في الشعر الجاهلي تاركا بصماته الواضحة على أفكار الشعراء ومشاعرهم.

تُعتبر العلاقة بين الشاعر والزمان محورية في عالم الشعر بالإضافة إلى ذلك يتجلى الزمان بأبعاده المختلفة حيث يمثل الزمن الماضي مصدرا للحكمة والإلهام انطلاقا من هذا فإن «الزمن الحقيقي لدى الشاعر هو الزمن الماضي لأن فيه قوته ولا يعترف بزمانه الآن لأن فيه عجزه وضعفه، وقد شغُف الجاهلي بالأطلال ومن ثمّ رَبَط بين الزمن الحاضر والماضي في المقدمة الطللية فهي شكل من أشكال المقارنة بين الماضي والحاضر»[3]وبهذا نجد أن علاقة الشاعر بالزمن تعكس تفاوتا بين القوة والضعف.

---

[1]– عباس إقبالي، دلالة الزمان الحقيقية والرمزية في الشعر الجاهلي، مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، العدد 7، سنة 2018، ص: 98.

[2]– إبراهيم عبد الرحمن محمد، بين القديم والجديد، مكتبة الشباب، القاهرة،ط1، سنة 1987م، ص: 587 – 588.

[3]– أسماء أبو زيد محمد أبو زيد، أصداء الزمن عند الشاعر الجاهلي، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد 36، سنة 2021م، ص: 1594.

في ضوء ما سبق يمكننا إستخلاص إن: الزمان في الشعر الجاهلي شهد حضورا بارزا، حاملا معه نغمات الخلود وانعكاسات الواقع وعبر عنه الشعراء براعة فائقة، مضفين على نصوصهم إبداعا صادقا وجمالا أخّاذاً، حيث وظفه الشعراء بمهارة فائقة لإضفاء دلالات عميقة وتأثيرات مؤثرة على نصوصهم، ليصبح عنصرا أساسيا في بناء القصائد الجاهلية، فعبروا من خلاله عن مشاعرهم وأفكارهم ومختلف تجاربهم الحياتية، إذن ومن خلال هذا تشكل المقدمة الطللية لوحة فنية تُجسد عبقرية الشعراء العرب في التعامل مع الزمن، فما هي مظاهر التعامل معه في هذا النوع من القصائد ؟

ثانيا: تجليات فلسفة الزمان في المقدمة الطللية:

تُعد المقدمة الطللية لوحة فنية غنية بالصور الشعرية التي تُجسد عبقرية الشاعر وقدرته على التعامل مع الزمان بأبعاد مختلفة لذلك فإن «الأطلال في حقيقة الأمر ما هو إلا تجربة ذاتية وضرب من الذكريات والحنين إلى الماضي والتروع إليه فالشعراء يرتدون بأبصارهم إلى ماضي ذكرياتهم وأحلامهم الضائعة في زمن انقضى من حياتهم»[1] هكذا تتجسد الأطلال ملحمة الحياة بكل تفاصيلها ومعانيها المتشعبة.

يتبين لنا مما سبق أنها مسرح حي لمجموعة واسعة من المشاعر والأفكار فتصبح رمزا غنيا بالدلالات التي تتجاوز مجرد الحجارة المتناثرة، «الأطلال تحمل الذكرى والماضي والحاضر واللذة واللوعة ومشاعر الإنسان وهموم الجماعة وفيه الرغبة والرهبة والتجربة الفردية، وتراث القبيلة ومعاني الحياة والبقاء والزوال و الفناء، هذا إلى جانب

---

[1]- رعد أحمد الزبيدي، في الشعر الجاهلي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط1، 1991 م، ص: 89.

* امرؤ القيس، هو شاعر عربي ومن أصحاب المعلقات برز في فترة الجاهلية، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ولد 501 بنجدة الجزيرة العربية له ألقاب كثيرة أشهرها امرؤ القيس كما لُقب بالملك الضليل، يُعد رأس شعراء العرب وهو صاحب أشهر معلقة من المعلقات توفي سنة 540 ه، ينظر: سيد محمد ديب، امرئ القيس، بين القدماء والمحدثين، دار الطباعة المحمدية الأولى سنة 1989، ص: 13.

الكثير من الرموز والدلالات المتعددة للوحة الطلل»[1] ولكن وعلى الرغم من ذلك كانت الأطلال بحدها «ظاهرة معيرة عن قضايا وجدانية متجسدة في صميم حياة الجماعة فهي تصور الأمور المادية والنفسية لتلك الجماعة»[2] وفي ختام المطاف تظل الأطلال شاهدة على عظمة الماضي وحاضرا حيا في ذاكرة الشاعر.

وهكذا تصبح المقدمة الطللية رحلة عبر الزمن تجسد عبقرية امرؤ القيس وقدرته على التعامل مع الزمان بأبعاد مختلفة إذن ما هي المفاتيح التي استخدمها لفتح أبواب الزمن في مقدمته الطللية ؟ أو كيف انعكست عبقريته في توظيفه للزمان ؟ و ما هي القيم الجمالية والفلسفية التي عبّر عنها من خلال تعامله مع الزمان في المقدمة الطللية ؟

1- تجليات فلسفة الزمان عند اِمرئ القيس:

تعددت طبيعة الزمان في شعر امرئ القيس واستخداماته وتنوعت دلالاته ووظيفته فهي تكشف بدورها قدرة الشاعر على التعامل مع الزمان، في الغالب إنّ «البكاء على الأطلال هو ما يفسر لنا لوعة الشاعر نتيجة الزمن والأقدار والرحيل»[3]، ومن المتعارف عليه هو أن هذا العامل يشكل جزءا مهما من حياة الشاعر ففي قصيدته **"قفا نبك"** التي اِستهلها بقوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوْضِحَ فَالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

تَرَى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصَاتِهَا ... وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

كَأَنِّيْ غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

---

[1]- نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث هجري، دار البحار، القاهرة، ط1، 1950، ص: 100.

[2] إبراهيم عبد الرحمن محمد، قضايا الشعر في النقد العربي، دار العودة، ط 2، بيروت، 1981 م، ص: 120.

[3]- أبو القاسم رشوان، استدعاء الرمز المكاني في الشعر القديم، مكتبة الآداب، ط 1، القاهرة، 1995 م، ص: 26.

وُقُوْفًا بِهَا صَحْبِيْ عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ
وَإِنَّ شِفَائِيْ عَبْرَةٌ مَهَرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ[1]

بدأ الشاعر معلقته ببكاء الديار، وصور حيرته وذهوله واستوقف أصحابه ليحملوا عنه عبء الحزن والشجى وهذا المطلع هو أفضل إبتداء له لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمترل في مصرع واحد»[2]، وهنا الشاعر يناقش الذكرى الماضية وهي يوم رحيل أحبابه حيث أنها «مقدمة طللية رسم فيها الشاعر صورة لحالته الحزينة والحسرة التي تختلج في صدره جراء فقدانه لمحبوبته، حيث بيَّن المواضع التي كانت فيها وجمعتهما فهي حاضرة في ذهنه وواضحة المعالم بالرغم من مرور الزمن وتعاقب الرياح عليها، فيطلب من أصْحابه الوقوف والبكاء معه على ذكرياته الماضية عسى أن يخفف ذلك من حزنه وألمه»[3]، وهكذا نرى الشاعر يتعامل مع الزمان من خلال حزنه وحنينه إلى ذكريات الماضي.

يتجلى لنا البعد الزماني في هذه المقدمة الطللية من خلال استخدام الشاعر مصطلحات زمانية من بينها مصطلح "**ذكرى**" فهي مفهوم زمني حُبلى بالمراحل الماضية وبما عاشه شاعر الطفولة قديما أو ما في معناه في معنى زمن ماضٍ وفات، «وكأن الشاعر حين يقف بالديار. ويحيل نظرته في أنحائها ويرى بقاياها البالية المهجورة تغالب الفناء وتظل قائمة تثور في نفسه الذكرى، فيعود بخياله إلى أيام حياته السعيدة التي قضاها في هذه الربوع على وصال مع أحبته. فتثير هذه الذكرى في نفس الشاعر الألم والحزن»[4]، يرتبط مصطلح الذكرى بالتذكر لذا فهو من "ذكر الشيء: ذكرا وذكرى وتذكارا أي

---

[1]- امرؤ القيس الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط 5، ص: 90.

[2]- سعيد اسماعيل شبلي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب، ط 5، القاهرة، 2001 م، ص: 137.

[3]- الزوزني، شرح المعلقات السبع (بتصرف) دار إحياء التراث العربي، ط 1،سنة 2002، ص: 13 – 30.

[4]عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية ق 3، دراسة تحليلية، دمشق سوريا، د ط، 1968، ص: 62.

حفظه واستحضره وجرى على لسانه بعد نسيانه»[1] يتضح لنا جليا أن الشاعر يستخدم هذا المصطلح للتعبير عن حالته النفسية وحنينه للماضي بوصفه مشاعر الحزن والجيرة والذهول ولتسليط الضوء على تأثير مرور الزمان.

وهكذا تتلاقى الذكريات مع مرور الزمن فتبقى حية في ذاكرة الشاعر رغم تعاقب الأحداث وتغير الظروف لهذا يعتبر «شعر الوقوف على الأطلال عند العرب مثقل بالذكريات وفيه دائما صلة تشد الشاعر إلى ماضي حبيب عزيز عليه.... فيقف ليبكيه ويقضي حقه عنده[2] ومن هنا يمكن تعريف الذاكرة والتي يستطيع الشاعر من خلالها استعادة تجاربه ومشاعره.الذاكرة «قدرة الإنسان على اِستعادة مادة سابقا له وإن تعلمها واحتفظ بها في ذاكرته، و التذكر يكشف شيئاً أو أشياء عن ماضي الشخصية من خلال كلمة أو جملة أو موقف أو شخصية، وهذا ما يدفع الشخصية إلى التذكر وأحيانا يتم التذكر بدون هذه الأشياء»[3] يمكن القول من خلال هذا أن الذاكرة والزمن هما عنصران أساسيان في تكوين الشاعر لشعره فمن خلال الذاكرة يستطيع الشاعر استعادة تجاربه ومشاعره، كما أن الزمن يُعد أحد أهم العناصر التي تؤثر على حياته فهو يمضي سريعا ويغير كلّ شيء في الحياة، ويستخدم كأداة فنية لخلق مشاعر الحنين والأسى.

فيما يخص مصطلح "**ذكرى**" يمكن رؤية استخدامه في القصيدة في الوصف الشخصي للشاعر نفسه، حيث يصف حالته النفسية ومشاعره اتجاه الحبيبة والأماكن التي ترتبط بها حيث يشير هذا المصطلح لاستعادة الماضي إذ «لا يمكن للإنسان العيش من دون ذكريات تدخل في تشكيل هويته وهذه الذكريات المشتركة إنما تتأطر داخل فضاء زماني وآخر مكاني ولا يمتلك الجميع القدرة نفسها على استرجاع الذكريات المشتركة،

---

[1] – معجم اللغة العربية، معجم الوسيط، مطبع الأوقست، يشركو، الإعلانات الشرقية، ط 3، ص: 338.

[2] – عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال، ص: 115.

[3] – شكري عزيز الماضي وآخرون، فنون النثر العربي الحديث، منشورات جامعة القدس المفتوحة، 2015، عمان الأردن، ص: 115 – 116.

بينها التذكر تجربة جماعية بسهولة يكون استدعاء البعض الآخر لها عصيّاً حتى لو نجح الفرد في الوصول إليها»[1] ومن هنا تبقى هذه الكلمة محفورة في الذاكرة وحاضرة في العقل والقلب بالرغم من مرور الزمن وتعكس مفهوم البقاء والثبات حيث أن الذكريات لا تتلاشى بسهولة وتبقى ترافق الشخص طوال حياته.

وتماشيا مع ما تم طرحه من قبل لا يسعنا إلا التأكيد، على أن الذكرى هي الجو النفسي المظلم، فهي كسجن نفسي له تقيده في قفص من الألم والحزن تثقل روحه وتعكر صفو حياتة تاركة وراءها جروحا لا تشفى إذن فكيف هو الزمن الحرفي والواقعي في ليله ؟.

أ- طول الليل ودلالاته النفسية:

يُعد الليل تلك الظاهرة الطبيعية الزمانية الصامتة جزءا من الوجود المحيط بنا، ومثالا حيا لتغيير الزمان الذي نعيش فيه، إذ تتدخل مشاعرنا وتشكل عصا سحرية تحرك إيقاع الزمن فيصبح سريعا أو بطيئا حسب حالتنا النفسية ينعكس ذلك على موقفنا من الزمن خاصة عندما نشعر ببطء جريانه في الحاضر «لأن الشعور بالآن لا يتم حقا إلا في حالة القلق الهائل وهذا ما يفسر لماذا نشعر بطول الزمن جدا في حالة القلق والخوف»[2] ومثال على ذلك عندما تكون في حالة من الضغط والحزن شعر وكأن الزمن يمر ببطء، ويمر دون أن نعيشه تبرز هذه الظاهرة بشكل جلي في شعر الجاهليين حيث يتخذون من الليل مسرحا لأفكارهم ومشاعرهم .

يُعد الليل رمزا هاما في شعر امرئ القيس حيث يرتبط بمشاعر الشقاء والحزن والوحدة إذ يقول "المرزباني" «إنما أجمع الشعراء على ذلك من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد المجيب وتقيد اللحظ في أقصى مرامي النظر الذي لا بد

---

[1]- بول ريكور، الذاكرة والتاريخ والنسيان، دار النشر، كلية الأدب والمعلوم الإنسانية، الرباط، د س، ص: 190 – ص.191.

[2]- عبد الرحمن بدوي، الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية، ط 2، القاهرة، سنة 1955، ص: 174.

أن يؤدي إلى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه»[1]هكذا تتوقف حركة الزمن، كأنه قد ضاع في متاهة الليل تاركا ورائه شعورا بالوحدة والاغتراب، ومن هنا كانت نظرة الشاعر امرئ القيس إلى الليل نظرة «تتجاور المستوى الوجداني إلى مستويات أخرى فيتعامل مع الليل كظاهرة زمانية وجودية وفق رؤية شاملة يتمازج في استيعابها الهم الداخلي بالهموم الخارجية، ولذلك عبر في العديد من المواقف عن عجزه أمام نسوة الليل وشراسته»[2] إذ يقاس طول الليل عند امرئ القيس بمدى حزنه وألمه فكلما إزداد الليل طولا وامتدادا وما هو يذكر ما لقيه في ظلمة ليله الدامس وما جلب إليه من خوف وحزن وجزع.

ب- لوحة الليل في شعر امرئ القيس:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِيْ
فَقُلْتُ لَهُ لما تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفِ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحَ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِ مُغَارِ الفَتَلِ شُدَّتْ بِيَذْبَلِ[3]

في هذه اللوحة يصف الشاعر الليل ومعاناته فيه فهو ليل أسود قاتم لا يحمل إلى الهموم والضنك على قلبه «تكاد تجمع المقاربات النقدية على أن الليل أشد منغصات عيش امرؤ القيس كما اتفقت تلك المقاربات على أن الشاعر أجاد في التعبير عن إحساسه الفجائعي اتجاه الليل»[4] إذ يقول المزرباني متحدثا عن وصف الشاعر لليل في مقدمته الطللية وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيات اشتعل الإحسان إليها والحذق

---

[1]- أبو عبد الله محمد بن عمران المزرباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر، 1965، ص: 35.

[2]- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 13.

[3]- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 18 – 19.

[4]- نصرت صالح يونس، الليل في شعر امرئ القيس، قراءة جديدة مجلة التربية للعلوم الإنسانية جامعة الموصل، مجلد 1، العدد 4، سنة 2021 م، ص: 292.

فيها[1] فصورة الليل من اللوحات الفنية التي تستحق البحث والاهتمام والتأمل لما فيها من إيحاءات وقيم إنسانية، تضيء جوانب من النفس البشرية وتتجلى فيها عوالم هذه النفس ومجاهيلها المتسقة مع سواد الليل وظلت فهو، الذي يكتسب أهمية كبيرة في شعرنا القديم بملامحه ودلالاته.

تستمد هذه اللوحة جماليتها وتبرز جمالا متفردا في نظرنا من خلال السيطرة على البناء الإستعاري، والتفاعل بين الشاعر وليله المفزع والمهلك، حيث: «جاءت حركة الزمان سلبية من جهة علاقتها بالشاعر فهو زمن مشحون بهموم شتى وامتداد طويل... ما جعله يبدوا عدوّا لا يُقهر لم يملك الشاعر أمامه إلى الشكوى والتعبير عن الضجر والتبرم، وقد تجلى ذلك من خلال التشبيه (كموج البحر، كأن نجومه...)، والصفات (مرخٍ سدوله، ليبتلي، تمطى. أردف، ناء...)»[2] وكذلك من حيث، «كان هذا الليل، كما صوره الشاعر أشبه شيء بالكابوس المرعب، يظهر طابع هذا الكابوس على وجه الخصوص في تشخيص الليل وجعله شبيها بكائن خرافي يهاجم الشاعر ويهجم عليه»[3] وعليه تصبح هذه اللوحة بمثابة نافذة على أعماق نفس الشاعر حيث تُعبر عن خوفه من ليلٍ قاتمٍ يطارده.

يصارع الشاعر في مواجهة ليله المرعب، لكنه يدرك عجزه عن هزيمة هذا العدو المخيف، فبدلا من السعي إلى النصر يواجه الشاعر ليله المظلم مدركا ضعفه أمام قوى الظُلمة المهيمنة، وبعد أن رسم صورة مرعبة لليله نراه عاجزا عن الفعل مكتفيا بالاحتجاجات اللفظية فهو «لا يحاول تجاوز الليل أو الإنتصار عليه، لا يملك سوى

---

[1]- أبو عبد الله محمد بن عمران المزرباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، ص: 35.

[2]- عواد صالح اليحياوي، جدلية الحركة والسكون في لوحة الليل في معلقة امرئ القيس، مجلة نقد وتنوير، العدد 4، السنة الثانية، ص: 370.

[3]- محمد أحمد برير، الليل والنهار في معلقة امرئ القيس حاشية على قراءة ثانية، مجلة فصول، مج 14، عدد 2، سنة 1995، ص: 27 .

الإحتجاج القولي الذي يصاحبه غياب تام للفعل، وهذا ما جعل الشاعر يرى في حركة الزمان إلا باعثا للقلق والتوجس، فالليل إذا إنزاح سيطر صباح مماثل له»[1]«ولحركة طول الليل واستمرارها على النحو الذي جاءت عليه دلالة واضحة على طول الأحزان والشدائد وما نتج عنها من لم يُعبّر عنه تصريحا بل عبرت عنه هذه اللوحة المتميزة التي رسمها الشاعر مصورا إسراف الليل في الطول حتى ليظن أن نجومه (شدت بيذبل) فهي لا نتحرك ثابتة ثبات هذا الجبل»[2] وهذا ما يغرق الشاعر في بحر من اليأس، عاجزا عن إيجاد بصيص أمل ينير ظلمة ليله الدامس.

يُثقل كاهل الشاعر ليله الطويل، بينما تُثقل همومه المتفاقمة على صدره كلما تراءت أمامه ذكريات وقوفه على بعض الأطلال بقوله:

غَشيتُ دِيارَ الحَيِّ بِالبَكَرات ... فَعارِمَةٍ فَبَرقَةِ العِيَرات

فَغَولٍ فَحِلّيتٍ بِأَكنافِ مُنعَجٍ ... إِلى عاقِلٍ فَالجُبِّ ذي الأَمَرات

ظَلَلتُ رِدائي فَوقَ رَأسِيَ قاعِداً ... أَعُدُّ الحَصى ما تَنقَضي عَبَراتي

أَعِنّي عَلى التَهمامِ وَالذِكَراتِ ... يَبِتْنَ عَلى ذِي الهَمِّ مُعتَكِراتِ

بِلَيلِ التَمامِ أَو وَصَلنَ بِمِثلِهِ ... مُقايَسَةً أَيّامُها نَكِراتِ[3]

يُطِل الشاعر من خلال نافذة الذاكرة على لوحة قديمة تُجَسد وقوفه على الأطلال، باحثا عن بقايا ماض عزيز «إذ يعبر الشاعر عبر استذكاره لوقوفه على الأطلال على مدى حبه للتلك الأمكنة سواءا كانت أمكنة واقعية أم أنها متخيلة أو كان وقوفه حقيقيا أم فعلا تخيلا صرفاً»[4] لذلك يصبح وقوف الشاعر على الأطلال انعكاسا

---

(1)- المرجع السابق، ص: 28.

(2)- نوري القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الأرشاد للطباعة والنشر، بيروت،ط1، 1970، ص: 236.

(3)- ديوان، امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 78 – 79.

(4)- كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (البنية والرؤيا)، الهيئة المصرية العامة، د ط، مصر، 1987، ص:280 .

لذاته حيث يسقط مشاعره وعواطفه على تلك الديار تصبح الأطلال رمزا لذكرياته وأحلامه وتجسد رحلته الداخلية في البحث عن معنى الحياة.

يُبحر الشاعر في دهاليز ذاكرته باحثا عن معالم ماضيه الضائع، حاملا عبئ وعيه المتأزم «أمام المكان الذي يتحول دائما إلى زمان، ذكرى... مما يشي بعبثية الحياة تحت وطأة الفقد والصيرورة الزمنية»[1] في ختام هذا يجد الشاعر نفسه معاصرا بين ذكريات الماضي وواقع الحاضر، وهذا ما يظهر ارتباطه الوثيق بين المكان والزمان وتأثير الذكريات على تجربته الحالية، وهذا ما يشير إلى تجربة الشاعر بتغيرات الزمن وتأثيرها على وعيه ورؤيته للحياة مِمَا يجسد العلاقة المعقدة بين الإنسان والزمن وكيفية تأثيره على الذاكرة و الوعي.

نجد الشاعر يُعبر عن طول الليل بليل التمام وهو أطول ليالي الشتاء وأقساها وهذا ما يصور معاناة الشاعر ومقصاته «لذا نراه يستعين بالآخر بأسلوب أمري "**أعني**".. يطلب من صاحب له مفترض أو واقعي أن ينقذه من الذكريات والهموم المتواردة عليه في ليل من أطول ليالي العام»[2] ولهذا يشير إلى مرور الزمن ببطء خلال هذه اللحظات الصعبة والطويلة كما يظهر تأثير الذكريات والهموم على مفهوم الزمن حيث يشعر الشاعر بأن اللحظات تمر ببطء وكأن الليل لا ينتهي مما يبرز تجربته الشخصية للزمن وتأثيرها على مشاعره وأفكاره.

بعد استكشافنا واستعراضنا لمختلف مظاهر الزمان في مقدمة امرئ القيس الطللية، يتضح لنا أنه يتعامل مع الزمن بطرق مختلفة فهو يستخدم الذكرى للتعبير عن حنينه للماضي ويستخدم الليل كرمز لمشاعر الحزن والوحشية ويعبر عن شعوره ببطء الزمن من خلال اللحظات الصعبة وعلى سبيل هذا حان الوقت لنغوص في رحلة الزمان

---

(1)- علي مصطفى العشا، الوقفة الطللية بين القبول والتساؤل في رؤى بعض الشعراء الجاهليين، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، العدد 1، سنة 2005 م، ص: 91.

(2)- نصرت صالح يونس، الليل في شعر امرؤ القيس، قراءة جديدة، ص: 294.

لدى شاعر آخر ألا وهو لبيد بن ربيعة العامري، إذن فيما تتمثل مظاهر الزمان عنده؟ وكيف يصور الزمان في شعره؟

2- تجليات فلسفة الزمان عند لبيد بن ربيعة العامري":

يتألق الطلل كأحد أهم الموضوعات في القصيدة الجاهلية، لارتباطه الوثيق بجوهر إنسانية الشاعر، وتجاربه الشخصية، ومشاعره المتقلبة، فهو يثير مشاعر الحزن والبكاء لدى الشاعر الجاهلي، ويعكس تناقضه مع ميوله وعواطفه ويجسد صورة حية لماضيه وحاضره، ونادرا ما تخلو قصيدة من قصائد المعلقات الجاهلية من ظاهرة البكاء على الأطلال مما جعلها ظاهرة بارزة في الشعر الجاهلي ومن بين هذه المعلقات تبرز معلقة لبيد بن ربيعة العامري كنموذج جلي لهذه الظاهرة إذ يقول في مطلعها:

عَفَتِ الدِيارُ مَحَلُّها فَمُقامُها ... بِمَنىً تَأَبَّدَ غَولُها فَرِجامُها

فَمَدافِعُ الرَيّانِ عُرِّيَ رَسمُها ... خَلَقاً كَما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعدَ عَهدِ أَنيسِها ... حِجَجٌ خَلَونَ حَلالُها وَحَرامُها

رُزِقَت مَرابيعَ النُجومِ وَصابَها ... وَدقُ الرَواعِدِ جَودُها فَرِهامُها

مِن كُلِّ ساريَةٍ وَغادٍ مُدجِنٍ ... وَعَشِيَّةٍ مُتَجاوِبٍ إِرزامُها

فَعَلا فُروعُ الأَيهُقانِ وَأَطفَلَت ... بِالجَهلَتَينِ ظِباؤُها وَنَعامُها

وَالعَينُ ساكِنَةٌ عَلى أَطلائِها ... عوذاً تَأَجَّلُ بِالفَضاءِ بِهامُها

وَجَلا السُيولُ عَنِ الطُلولِ كَأَنَّها ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقلامُها

أَو رَجعُ واشِمَةٍ أُسِفَّ نُؤورُها ... كِفَفاً تَعَرَّضَ فَوقَهُنَّ وِشامُها

فَوَقَفتُ أَسأَلُها وَكَيفَ سُؤالُنا ... صُمّاً خَوالِدَ ما يُبينُ كَلامُها

عَرِيَت وَكانَ بِها الجَميعُ فَأَبكَروا ... مِنها وَغودِرَ نُؤيُها وَثُمامُها[1]

[1]- لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، حققه وقدمه إحسان عباس، كوين، د ط، سنة 1962، ص:166 .

سار لبيد في مطلع هذه المعلقة على النهج الجاهلي المعروف بالطللية فخصص الأبيات الأولى لوصف الأطلال وزوال آثارها وما أصابها من ريح وأمطار فـ«الشاعر صور المكان باستحضار الماضي فقدم وصفا خارجيا للأماكن التي ازدحمت في النص مبينا ما أصابها من دمار وخراب بفعل الزمن وكيف غدت خالية من أهلها»[1] إذ يتجلى حضور الزمان من خلال تغير معالم الديار وهذا ما يدل على مرور الزمن وطول مدّته، فلو لم يمرّ هذا الأخير لما تغيرت الديار.

يتعامل الشاعر مع الزمان من خلال مقدمته الطللية بمشاعر الحزن والأسى، فهو يرى أن الزمان قد قضى على الديار وأزال معالمها إذ يربط بين الزمان والمكان من خلال وصفه للأطلال وزوال معالمها بمرور الزمن وهذا ما يشير إلى أنهما عنصران متلازمان في النص الشعري يكمل أحدهما الآخر ويندرج هذا الربط في مفردة واحدة ألا وهي الزمكانية «إن أشكال الزمكانية في صورها المختلفة تجسد الزمن في المكان، وتجسد المكان في الزمن دون محاولة تفضيل أحدهما على الآخر حيث عرف المفهوم بأنه الترابط الداخلي الفني لعلاقات الزمان والمكان المعبر عنها في الأدب»[2] «فيصبح الشاعر مسكونا بالذكرى زمانا ومكانا وهذا ما يجعل اللحظة الطللية تعبر عن واقع الشاعر

---

* لبيد بن ربيعة العامري هو شاعر عربي من العصر الجاهلي ويعتبر واحد من الشعراء البارعين والموهوبين ولد في القرن السادس ميلادي يعتبر واحدا من الشعراء السبعة الذين اشتهروا في الجاهلية والذين يعتبرون رمزا في الشعر العربي التقليدي وقدمت قصائده إسهاما كبيرا في تطور الشعر العربي، ولا تزال قصائده تدرس وتقرأ في أوساط أدبية وجامعات عربية، ينظر: لبيد بن ربيعة العامري، ديوان شرح الطوسي قدم له ووضع هوامشه الدكتور حنا نصا ألحة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، سنة 1933، ص: 7.

[1]- نهى خليل إبراهيم، فاعلية الزمان والمكان في شعر لبيدوذي الرمة، بحث مستهل من أطروحة دكتوراه، جامعة ديالي، كلية التربية للعلوم الانسانية، مجلة ديالي، العدد 84، سنة 2020، ص: 2.

[2]- ميجان الروبلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط 3، سنة 2002، ص: 17.

ومكبوتاته[1] «يقيم الشاعر ربطا وثيقا بين الزمان والمكان من خلال وصفه لتغيرات المكان بمرور الزمن، فعندما يتحدث عن زوال معالم الديار، فإنه يشير إلى مرور الزمن عليها.

يشير استدعاء الشاعر لذكرى الديار في مخيلته واسترجاعه لأحداثه فيها إلى مرور زمن طويل للغاية ويرتبط فكره عن الزمن بالمكان بشكل وثيق حيث لا يستطيع تجسيد مرور الزمن دون ربطه بالمكان فالمكان يحمل آثار الزمن ويدل عليه وهذا ما يبين أن «لفظة حجج يدل على الزمن الطويل الذي مرّ على خراب الديار فضلا على ابتداء النص بالفعل الماضي (عَفَتِ) بما يتلاءم وحديث الطلل في إطار تقنية الاسترجاع واستذكار الديار، ففكرة الزمن غير قابلة للتصوير بغير المكان فالمكان يشمل آثار الزمان و الزمان لا يمكن إظهاره إلا من خلال حال الوحشة والخراب الذي يحّل بالمكان»[2] وهذا ما يبين فكرة أن كل ما هو معتقد في المكان حاضر في الزمان إذ لا يمكن للزمان أن يعيد لنا الأمكنة التي فقدناها لكنه يمكنه أن ينعش ذكراها ويعيدنا إليها من خلال استرجاع مشاعرنا وأحاسيسنا التي ارتبطت بها.

يظهر بوضوح تأثير الزمان من خلال هذين البيتين:

مَدَافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا خَلْفَ كَمَا ضَمِنَ الوُحِيَّ

دِمَنُ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِهَا حِجَجُ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا[3]

يظهر بوضوح تأثير الزمن السلبي على نفسية الشاعر فقد تحوّل المكان الذي كان عامرا بالحياة والسكان إلى خراب موحش أثار في نفسه مشاعر الحزن والأسى فهو يصور لنا، ما حدث بأودية الريان وأن علاماتها زالت من البلا والقدم فأصبحت الآثار

---

[1]- وسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص:188.

[2]- ميادة كامل اسير، شعرية أبي تمام، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق ، د ط، سنة 2011، ص: 114.

[3]- لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، حققه وقدمه إحسان عباس، ص: 199.

قديمة بتوالي الزمن وكذلك يصور لنا الزمن الطويل الذي مرّ على خراب الديار وكيف تغير سلوك المكان بعد رحيل مؤنسيه فصار موحشا مخيفا ويعبر عن هذه المشاعر من خلال إستخدام مفردات قوية مثل **عري، تجرم، حرامها**. وهذا ما يضفي جوا من الكآبة والوحشة ويؤكد على تأثير الزمن المدمر لكل شيء.

تجسد المقدمة الطللية للبيد بن ربيعة العامري براعة عمق التجربة النفسية والفنية للشاعر، ففي هذه المقدمة يقف الشاعر على الأطلال وتغمر مشاعِره الحزن والألم لفقدان الماضي الجميل، حيث يبدأ الشاعر بوصف الديار بدقة، تاركا المجال مفتوحا لتداعيات الذكريات، وتتولد الصور الشعرية لتجسد عظمة الماضي وتناقضاته مع الحاضر البائس فنجد الديار قد درست معالمها وغيرت أحوالها و لم يبق منها سوى آثار تدل على حياة سابقة لذلك «فإن الوقوف على الأطلال والبكاء عليها وعلى أهلها الذين رحلوا إنما هو بكاء على الجمال الذي تلاشى واندثر»[1]

أعاد الشاعر تركيب الديار من جديد فكانت كطائر جريح، شفى جراحه المطر العذب الوّدّ فحول هذه الديار من الخراب إلى الحياة بأفعال ماضية رسم لوحة فنية حسن فيها وصف عودة الحياة إلى الديار المهملة "علا – أطفل – رزق" في قوله:

رُزِقَتْ مَرَابِيعَ النُّجُومِ وَصَابَهَا ... وَدْقُ الرَوَاعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا

مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ ... وَعَشِيَةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَامُهَا

فَعَلاَ فُرُوعَ الأَيْهُقَانِ وَأَطْفَلَتْ ... بِالجَهْلَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا

وَالعَيْنُ سَاكِنَةٌ عَلَى أَطْلاَئِهَا ... عُوذاً تَأَجَّلُ بِالفَضَاءِ بِهَامُهَا[2]

يرسم الشاعر صورة زمنية متسلسلة لعودة الحياة إلى الديار بدءا من هطول الأمطار، مرورا بخضرة الأشجار، وازدياد الحيوانات وانتهاءاً بإستقرار الماء في العيون، مع

---

[1]– يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، سنة 1981، ص: 34.

[2]– لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، حققه إحسان عباس، ص: 199.

توظيف البنية الفعلية الدالة على الزمن الماضي بشكل فعال إذ «توحي خصوصية لبيد في الاستعمال الجمالي لمنع ألفاظ الزمن برؤيته الفنية للطلل، وولد إحساسه بالزمان انطباعات صورية للمكان تتصارع بين الحضور والغياب، فكان يستحضرها ليجسد بها مختلف المشاعر الجمالية التي تتداعى من الانطباعات التصويرية التي يشملها التعبير الفني»[1] هكذا تجلت عبقرية الشاعر في أن يحوّل الخراب إلى جمال والموت إلى حياة.

يعود الشاعر مرة أخرى ويكشف، أن السيول أظهرت الأطلال مثلما تعيد المرأة وضع الوشم مرة أخرى ليظهر واضحا في قوله:

وَجَلاَ السُّيُولُ عَلَى الطُّلُولِ كأنّها زُبُرٌ تجِدُّ متونَها أقْلامُها

أوْ رَجْعُ واشِمةٍ أُسِفَّ نَؤورُهَا كفَفاً تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشَامُهَا[2]

كأن السيول أزاحت الستار عن مسرح الحياة القديم فكشف عن ديار كانت دفين تحت رماد الزمن، فهذه الأخيرة عندما أتت أزاحت الرمال ونحو ذلك فكشفت بقايا المنازل التي كانت موجودة، فظهرت بذلك آثار المنازل مرة أخرى، وهي مختلطة مع البيئة البرية التي أصبح المكان عليها، فجددت الآثار كما يجدد القلم الكتابة على الكتاب لتعود مرة أخرى بعد أن كادت تذهب، إذ يُشير إلى الكتابة والسيول كوسيلة لتجديد الحياة ويسعى لرؤية كل ما يحيط به بحالة سليمة دون أن تؤثر فيه الظروف الخارجية للزمان وبهذا «يريد أن يَظَّلَ المكان سليما عارما بالحياة ولكن الواقع يقول غير ذلك، ويأمل في بقايا الأطلال وهوها من الدمار والفناء»[3] يصف أن هذا السيل قد كشف عن بياض وسواد فشبهه بكتاب قد تطمس فأعيد على بعضه وترك ما تبين منه،

---

[1]– بند يتوكروتشه، علم الجمال، عرية نزيه الحكيم راجعه، بديع الكسم ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، المطبعة الهاشمية ، عمان، الأردن، سنة 1963، ص: 27.

[2]– لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، حققه و قدمه إحسان عباس، ص: 199.

[3]– موسى ربابعة، تشكيل الخطاب الشعري، دراسات في الشعر الجاهلي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1 ، سنة 2011، ص: 15.

فكأنه مختلف وكذلك آثار هذه الديار حيث يشجع الشاعر الحركة في المعاني التي ينتقيها من العالم ويبث في عناصرها الحياة»[1].

يصارع الشاعر زوال الديار، رغم ما لحق بها من تقادم وعوامل الطبيعة، فقد طمست معالمها وحل محلها ما بدّلها، لكن بقي منها بقايا تقاوم الزمن وتناضل من أجل البقاء ويريد الشاعر بهذا «بناء صورة إقْفَارْ الطلل للكشف عن إحيائه النفسي في ذاكرته وهو يسعى باستحضار لغة الخصب والنماء إلى إشاعة غياب الحياة البشرية، واستسلام حواسه لحقيقة تحطم الأصل الأسطوري النفسي لخلودها في رغباته وهو يستحضر هذه اللغة ليسقي ذاكرة الطلل في غيابه... لا ليسقي حياته كما ذهب بعضهم»[2] فهو يدرك أن الحياة البشرية قد غادرت هذا المكان لكنه يريد أن يحافظ على ذكراهِ حية في ذاكرته.

يُعلم الصمت المطبق على الطلل الشاعر لبيد كَنَهَ الحياة، فهو يدرك من خلال هذا الصمت أن الحياة زائلة وأن كل شيء في هذه الدنيا إلى زوال، ويدرك أيضا عبثية السؤال واستحالة الجواب فهو يعلم أن الديار قد زالت إلى الأبد وأنه لا يمكن إعادتها لَكِنّه على الرغم من ذلك يحاول أن يقاوم اليأس ويحافظ على الأمل ويطرح البديل ألا هو بث الحياة والرغبة في انبعاث الطلل من جديد، «المقدمة الطللية جمعت بين عنصرين أحدهما يذكر بالفناء وهو الأطلال، والآخر يذكر بالحياة وهو الحب، وليس اجتماع هذين النقيضين، الحياة والفناء في الموقف الواحد وارتباط أحدهما بالأخر إلا بالآخر إلا تأكيدا لإحساس الشاعر بالتناقض العام الماثل سواء في العالم الخارجي أو عالمه الباطني ولكن هذا التناقض هو الذي يُكون سر حياة الإنسان في حد ذاته بل سر الوجود في

---

[1]- زكريا بن يحي بن علي التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة محمد علي صبيح، مصر سنة 1980، ص: 249.

[2]- عبد المالك مرتاض، السبع معلقات، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، د ط، سنة 1998، ص: 135.

كلية المبنى وثنائية الحياة والموت»[1] إذ لا يوجد شيء ثابت مطلق، فالحياة تتكون من خليط من الفرح والحزن والأمل واليأس والفقدان.

مشهد الطلل يفيض بمشاعر الحزن العميق والفقدان حيث يثير ألم الفراق وخلاء الديار وخرابها ويزرع في نفس الشاعر شعورا بالوحدة والغربة، تاركًا وراءه خوفا من المجهول وتلاشي كل ما هو عزيز، وهكذا تصبح الأطلال شاهدة على رحلة الزمن وتروي حكاية الفراق والخراب والفناء «رسم لبيد صورًا متعددة لخضوع الديار للتهديم المتدرج أعملته قوى الطبيعة المادية من أمطار وتقادم الزمن، وأنتج فناء المكان فناء الأنس والحياة فيه، فأدى إلى توحشه وخرابه وموته وجنح المكان من طوابعه الإنسانية الحية إلى طبائع التوحش والخراب الذي يثير الإحساس المأسوي ويتدرجه إلى الفناء»[2] ومن بين الألفاظ الدالة على خراب الديار وفنائها ووحشتها والتي شكلت في نفسية الشاعر الحزن والأسى ولعب الفعل الماضي دوراً بدلالة على تحقيق هذا الخراب وثبوت وقوعه ألا وهي "عَفَتْ"، تَأَبَدَ، عُرِيَتْ، غُودِرَ.

تمثل الفعل الطللي المأساوي في الخوف والقلق واليأس والوحشية، فمع مرور الزمن تتحول الأطلال إلى رمز للفناء والزوال وتصبح شاهدة على قسوة الزمن وثير في النفس مشاعر الحزن فمن يرى الأطلال يدرك عجز الإنسان أمام قوى الطبيعة ويحس بضآلة وجوده ويسيطر عليه الشعور باليأس والإحباط كما تصبح الأطلال مصدرا للقلق والخوف حيث «بدأ فعل الخوف في رؤية لبيد للطلل مظهرا من مظاهر الإحساس بفعل الزمن في إفنائه للمكان وكانت صور الفناء والتلاشي والتقادم تجسيدًا للطابع المادي لأثر الزمن في دورة الحياة لذلك ألح ليبيد على أثرها في فناء المكان وموت الحياة اِنطلاقا من إحساسه بأثر الزمان في فناء حياة المكان... لذلك نوع في اِستعمال فكرة أثر الزمان في تخريب المكان بزمن الفعل الذي غلب عليه الماضي أو بتعيينه بمدة زمنية مادية محلها

---

[1]- محمد بلوحي، آليات الخطاب النقدي الغربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي،ص: 108.

[2]- نهى خليل إبراهيم، فاعلية الزمان والمكان في شعر لبيد وذي الرمة، ص: 33.

مقامها، حِجَجٌ، خَلَوْنَ»[1] «كوّن لبيد شعريا إحساسه المأساوي جراء إنفعاله بمشهد الطلل وتصوره النفسي الذي ينطوي فيه تأصل لا شعوري بمأساة الخراب وظهر هذا التأصل عن طريق إندفاعات داخلية لا يدرك الشاعر حقيقة كَنْهِهَا»[2] فمن خلال هذا نستطيع القول بأن الشاعر يصور لنا تأثير الزمان على المكان حيث تغيرت معالم المكان واختفت ملامحه القديمة وحلت محلها معالم أخرى.

لم يصرح لبيد بالحزن مباشرة، بل عبر عنه من خلال مشاهد الخراب والفراق والوحشة التي غزت المكان وتجسد هذا الحزن في تبدل أثار الديار إلى أثار بالية صماء قديمة «حيث أصبحت تلك الحوادث تعبر عن نفسيته من خلال استدعائها من مخزون ذاكرته بحيث تشكل هذه في النهاية معادٍ لا مساوقا لتجربه الشعرية»[3] يظهر بوضوح من خلال المقدمة الطللية للبيد بن ربيعة قوة الزمن وكيف أن هذا الأخير أدى إلى تخريب الديار وتحويلها إلى خراب «وهذا إستكناه الواقع الذي رآه الشاعر في وقفة تأملية أشعرته بقوة الموت السحيقة التي عززها قوله "صُمًّا خَوَالِدُ" و يأسه القاتل وعجزه عن لقاء الحبيبة، فأردفها بمفردات الخصب والانبعاث والنماء ورموز المواجهة وعناصر الحياة فكان ودق الرواعد "المطر" الذي ساعد على نمو وارتفاع فروع الأَيْهَقَانْ "النَبْتُ البري" دليلاً على البعث والنماء»[4] فبدلا من التعبير المباشر عن مشاعره يستخدم الشاعر الصور والرمزية لخلق تجربة شعرية غنية تثير مشاعر الحزن واليأس والأمل.

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 34.

[2]- عبد الرؤوف برجاوي، فصول في علم الجمال، دار الأفاق الجديدة، ط1، بيروت، لبنان، سنة 1981، ص: 177.

[3]- على محمد الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي، ط 1، مكتبة الأدب الغريب، القاهرة، سنة 2003، ص:59.

[4]- ينظر: يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص: 143

يُعبر الشاعر في هذين البيتين عن مشاعره المتضاربة، اتجاه الأطلال التي ظهرت له فهو من جهة يقف متسائلا عنها وكأنه يريد أن يحاورها ويستفهم عن حكاياتها، ومن جهة أخرى يدرك أن هذه الأطلال صماء خالدة في قوله:

فوقفتُ أسْألُهَا، وكيفَ سُؤالُنَا صُمّاً خوالدَ ما يُبينُ كلامُها

عرِيتْ وكان بها الجميعُ فأبكرُوا منها وَغُودرَ نُؤيُهَا وَثُمَامُها[1]

يطل الشاعر على الأطلال الباقية، شاهدة على حقبٍ خلت، فتحرك مشاعره وتثير في نفسه شتى الأسئلة، يقف أمامها حائرا، وكأنه يريد أن يحاورها ويستفهم عن حكاياتها، عن أحبائه الذين رحلوا، وعن الزمن الذي سرقهم منه حيث أن الشاعر هنا "يعطي الطلل قدرة كبيرة على مواجهة عوامل الاندثار والخراب، فكأنما يسلح نفسه بعناصر المقاومة والتحمل، والصبر للانتقالات من واقع مؤلم إلى واقع يتمناه حيث أن التوجه إلى الطلل هو في النهاية التوجه إلى الذات كأن الشاعر يجد في هذه الدار الخربة صورة عن نفسه المنعدمة الرثة[2].

لكن الشاعر يدرك أن هذه الأطلال صامتة، لا تنطق، يحاول أن يفهم لغتها الصامتة وأن يقرأ حكاياتها من خلال حجارتها المتآكلة ورسومها الباهتة إذ يستخدم كلمة "يبين" بمعنى "يظهر" فكأنه يرى في كل حجر حكاية وفي كل رسم قصة، فالشاعر يسعى للتحرر من قبضة الواقع المؤلم في تلك الديار التي طالتها آثار الزمن الذي يتسم رغم من يشوبُه من قوة المعنى والانفعالات بايجابية واضحة»[3] تصبح الأطلال في هذه اللحظة كأنها شخص حي يحاوره الشاعر، يشاركه آلامه وأحزانه ويساعده على استرجاع ذكريات الماضي.

---

[1]- لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، حققه وقدمه إحسان عباس، ص: 199.

[2]- سامي سويدان، في نص الشعري العربي، مقاربات منهجية ، دار الآداب، بيروت، ط 2، سنة 1999، ص: 292.

[3]- مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، نشر والتوزيع، سنة 1981، ص: 11.

يُصور لبيد بن ربيعة الزمان كقوة مدمرة لا تبقي على شيء، وتغير كل ما هو جميل وخلاّق، ففي مطلع معلقته يشير إلى أن الديار قد تغيرت و تقادمت وأن آثار الأحبة قد طمست مع مرور الزمان ويؤكد على دوره كعامل في الفراق بين الأحبة إذن ومن خلال بحثنا في كيفية تعامل امرؤ القيس ولبيد بن ربيعة العامري مع الزمان تستطيع القول أن هذا الأخير يشكل عنصرا هاما في شعرهما ويوظفه الشاعران ببراعة لخلق مشاعر معقدة وتقديم أفكار عميقة حول الحياة والموت بعد استكشافنا لتمظهرات الزمان نتجه الآن لِاستكشاف مستوياته المختلفة عند كل منهما إذن فيما تتمثل هذه المستويات؟

ثالثا: مستويات الزمان ودلالاته في البكائية الطللية:

1. مستوبات الزمان عند امرئ القيس:

تشكل المقدمة الطللية ركيزة أساسية في القصيدة العربية حيث، تمهد الطريق لفهم مضمونها ويلعب الزمان دورا محوريا في بنائها حيث يتيح للشاعر التعبير عن مشاعره المعقدة وتصوير واقعه المتغير إذ «يكشف لنا البحث عن فكرة الزمان في القصيدة العربية القديمة الذي يعبره تواتره المتفاوت الدلالات، بين الماضي والحاضر والمستقبل عن الحالة النفسية عن التي تنتاب الشاعر، فهو إلى الماضي أحن لما فيه من واقعية تشعره بالاستقرار ويتوق إلى المستقبل متخيلا صورة الأمل في صيرورة الحياة التي تشعره بالاستمرار فيتقاطع بذلك عنده الحنين إلى الماضي بالرغبة الأكيدة بأمل المستقبل»[1] وبذلك نستطيع التأكيد على أهمية دراسة الزمان لما له من دور هام في الكشف عن مشاعر الشاعر وتصوير واقعه.

شغل الزمان حيزا هاما في وجدان الشعراء، فهو النهر الذي تجرى فيه حياتهم ف «لقد كان ولا يزال الهاجس الجوهري الذي يؤرقهم منذ القدم بحكم اِرتباطه بآليات

[1]- الطيب بن جامعة، التقاطع الزمني في القصيدة العربية القديمة، مجلة فصل الخطاب، العدد 8، المجلد 2، لسنة 2014، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، ص:7.

الحياة الوجودية من ماض وحاضر ومستقبل، فكل شيء يراود الشاعر أو يكون سببا في تصالحه، أو تصادمه مع الحياة، يصب في مجرى الزمن»[1] في ضوء هذا التصوير نسج الزمان خيوطه المتشابكة بين الشاعر والطلل ليشكل علاقة جوهرية تتجلى في أبعاده الثلاثة من ماض وحاضر ومستقبل.

إن كل ما يحيط بالشاعر يتضمن فكرة الزمان فهو يشكل عنصرا أساسيا في فهمنا لإبداعه، يحدد سياق تجاربه ويؤثر على مشاعره وأفكاره وهذا ما نراه عند الشاعر امرئ القيس فـ «المتتبع لحركة الزمان عنده يجد الزمان فيها يتحرك على مستويين متقاطعين الماضي بكل زحم أحداثه والمستقبل بكل آماله»[2]، لذلك نجده يفتتح قصيدته بوقوفه على الطلل في الزمن الحاضر متذكرا بذلك ذكرياته من الماضي من خلال هذه الأبيات:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوَضِحُ فَالمِقْرَاةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نسجتْها من جَنُوب وشمالِ
تَرَى بَعَرَ الأرَامِ في عَرَصَاتِها ... وَقِيعَانُهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأَنِي غُدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُرَاتِ الحَيّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وُقوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لا تَهْلَكْ أسىً وتحمَّلِ
وإنّ شِفَائِي عِبْرَةٌ مُرْهَاقَةٌ ... فهلْ عند رَسمٍ دارِسٍ من مُعوِّلِ[3]

يظهر لنا جليا من خلال هذه الأبيات قدرة الشاعر على التلاعب بالزمن من خلال ربطه للماضي بالحاضر وذلك من خلال. «بكائه ووقوفه على ذكرياته الماضية وذلك من خلال فعل الأمر "قفا" والذي يمثل لحظة وقوفه على الطلل، ثم ينتقل إلى وصف الديار وهو كذلك الزمن الحاضر الذي يتمنى فيه الشاعر عودة الحياة إلى الطلل،

---

[1]- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 182.

[2]-الطيب بن جامعة، التقاطع الزمني في القصيدة العربية القديمة، ص: 8.

[3]- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 90.

أما في البيت الرابع يعود الشاعر بذاكرته إلى الزمن الماضي يوم ارتحالهم.. ليعود إلى حاضره في البيت الخامس بفعل الوقوف مرة أخرى ولكن هذا الوقوف كان لأصحابه من أجل دعوته إلى الصبر على الفراق»[1] يتجلى الزمن في هذه الأبيات من خلال الذكريات التي يسترجعها الشاعر، كما يظهر من خلال وصف الديار، ويشير إلى وضوح معالمها ورسومها التي لم يمحوها الزمان ونرى الماضي أيضا في مشاعر الحزن والأسى التي يعاني منها الشاعر في حين يتجلى الزمن الحاضر من خلال فعل الوقوف على الأطلال ليتذكر ما حدث في الماضي

من خلال هذه الأبيات نستنتج أن «الشاعر والطلل كلاهما خاضع لسلطة الزمن ونادرا ما يكون الزمن في صالح الشاعر إذ يفاجئه بالنوائب والمحن لكن في مقابل جبروت الزمن يستطيع الشاعر التحكم في الطلل، إما مشهد وصفي آني أو في مشهد تركيبي مستوحى من الذاكرة»[2] يتمحور الزمن الحاضر في شعر امرؤ القيس من خلال ربطه بين الماضي والحاضر من خلال الذكريات، فهو يتذكر الماضي أثناء وقوفه على الديار في الحاضر، كما يربط بين الماضي والحاضر من خلال مشاعر الحزن، فهو يعاني من حزن الفراق في الماضي ويحاول التعبير عن مشاعره في الحاضر، ونرى الربط أيضا بينهما من خلال الصور البلاغية فهو يستخدم صورا من الماضي لوصف الحاضر مثل تشبيه بعر الآرام بحباب الفلفل.

تثير الطللية مشاعر الحزن والأسى لدى الشاعر الجاهلي فهو يرى فيها بقايا حياة سابقة وأشخاص رحلوا إلى الأبد ونجد في المقدمة الطللية تعبيرا عن هذه المشاعر حيث يصف الشعراء حزنهم على الأطلال وذكرياتهم التي عاشوها في الماضي لذلك فهي «تمثل تعبيرا محسوسا عن إشكالية الزمان والمكان التي لطالما كانت زخرة بالذكريات التي يحن

---

[1]- فتيحة قيعص، شعرية الزمن في مقدمات القصائد الجاهلية من خلال نماذج مختارة (بتصرف)، ص: 81.

[2]- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 82.

إليها الشاعر»[1] وهذا ما يجعلها عنصرا هاما و رمزا فريدا، حيث أنها تشكل نافذة نطل من خلالها على مشاعر الشاعر الجاهلي وواقعه المعاش.

يتعدد توظيف الزمن ويتنوع في المقدمة الطللية إذ نجد فيه حديثا في الزمن الماضي وحديثا في الحاضر «إذ ربما كان الماضي بالنسبة للشاعر إحدى وسائله للتغلب على أحزانه أو كان وسيلته للفرار من قهر الواقع والخلاص من كآبته وآلامه فإذا به يؤثر ذلك الفرار من خلال الحلم أو الأمنية أملا في استرجاع ذلك الماضي الذي يعيد إليه بعضا من ذكريات حياة مشرقة أو بقايا نمط خصب من العيش جار عليه الزمان حيث أغار عليه فأفقده كل مباهجه»[2] ففي رحلة الشاعر عبر الزمن يصبح الماضي ملاذا آمنا من قهر الواقع وكآبته.

فإذا جئنا إلى الزمن الماضي نجده طاغيا ويشكل حضورا قويا ويُلقي بظلاله على مشاعر الشاعر حيث يعيد إحياء ذكرياته ومشاعره و هذا ما نجده في هذه الأبيات

فتُوضِحَ فالْمِقراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْأَلِ

إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ بشِقٍّ وَتحتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

وَيَومًا عَلَى ظَهر الكَثيبِ تَعَذَّرَت عَلَيَّ وَآلَت حَلفَةً لَم تَحَلَّلِ[3]

يعبر الشاعر عن تأثره بالماضي من خلال استخدامه للأدوات اللغوية التي تشير إلى الماضي مثل "لم" و"لما" ويعف و" يحول" و "تحلل، وهذا ما يدل على أن، «الماضي جزء من إحساس الشاعر الذي يعيش به، وهو ما يفسر حضور الماضي الذي يشد مشاعر

---

[1]- راضية لرقم، النص السردي عند الحطيئة وعمرو بن الأهتم دراسة سيميائية، رسالة ماجيستر (مخطوطة)، جامعة منتوري قسطينة ، كلية الآداب واللغات، سنة 2008، ص: 11.

[2]- مي يوسف خليف، الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، سنة 2015 م، ص: 39.

[3]-امرؤ القيس، الديوان .تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 118.

الشاعر»[1] بعد استعراضنا لدلالة الزمن الماضي في هذه الأبيات الشعرية تستطيع القول أن هذا الزمن يؤثر بشكل كبير على نفسيته وعلى مشاعره.

الزمان النفسي ذلك العالم الداخلي الذي ينبض بمشاعر الشاعر وذكرياته، هو بمثابة رحلة عبر الزمن، رحلة تعيد إحياء الماضي وتشكل الحاضر وتلهم المستقبل إذ هذا الأخير:« يذكره بالماضي الذي يتسع فيه الكون وتضيق فيه دائرة الوجود»[2]، وهذا ما ذهب إليه عبد المالك مرتاض في قوله:«وحين ينصرف الشأن إلى الزمان النفسي الذي يزداد طوله على النفس في حال الشدّة والضيق ويقّل طوله عن مدّاه الحقيقي على هذه النفس، حتى كأن الأسبوع يوم واليوم ساعة، والساعة مجرد لحظة من الزمن في أحوال السعادة والغضارة والمتاع والنعيم»[3] وكذلك يتجلى لنا أن «البعد النفسي للشاعر يتدخل في الأسلوب الذي يتعامل فيه الشاعر مع الأشياء التي يصدم بها في واقعه»[4] وهكذا يصبح الزمان النفسي هوية للشاعر، هوية تُعبر عن مشاعره وذكرياته وتلهم إبداعه.

يقف الشاعر على الأطلال في مقدمته الطللية وهذا ما يثير مشاعر الحنين في نفسه وتعيده إلى الوراء في زمن انقضى من حياته لذلك فـــ «المقدمة الطللية ذكريات

---

[1]- الطيب بن جامعة، التقاطع الزمني في القصيدة العربية، ص: 12.

[2]- ستيفن هوكنغ، موجز تاريخ الزمن من الانفجار الأعظم إلى الثقوب السوداء، أكاديميا، ط 1، سنة 1990، ص: 169.

[3]- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ص: 178.

[4]- موسى ربابعة، تشكيل الخطاب الشعري، دراسات في الشعر الجاهلي، دار جرير للنشر والتوزيع اليرموك، ط 2، سنة 2006، ص: 27.

تثار من خلال ذكر المواضع وتقدير مدة القدم أشهرا وأعواما وحقبا»[1] وهذا ما يتبين لنا من خلال هذه الأبيات لإستخدامه ألفاظ دالة على الزمن في قوله[2]:

أَلا اِنعم صَباحاً أَيُّها الرَبعُ وَاِنطِقِ وَحدِّث حَديثَ الرَكبِ إِن شِئتَ وَاِصدُقِ

وَحَدِّث بِأَن زالَت بِلَيلٍ حُمولُهُم كَنَحلٍ مِنَ الأَعراضِ غَيرِ مُنَبِّقِ.

ومن خلال هذا يصبح الملل رمزا للماضي والبكاء عليه يجسد أنشودة حزينة لمشاعر الشاعر, تعكس رنين الحزن والألم في أعماقه فـ « بكاء الشاعر الطلل بمثابة بكاء على ماضيه فالطّلل يأتي دائما بالماضي، يقف عليه الشاعر ويسترجع ذلك الزّمن الذي وَلَّى»[3] بينما يشير «وصف صورة الأطلال بأنها تمثل حاضر الشاعر وماضيه مشكلا من خلالها وسيلة للكشف عن واقعه بكل ما يحمل من مظاهر وأشكال الحياة»[4].

يصبح الماضي رمزا للحزن والأسى رمزا لشعور الشاعر بالاضطراب والإرتباك إذ أنه، «لا يحقق له الارتياح عن شواغله المستورة وراء المستقبل مما يزيد نفسيته اضطرابا لا ينتهي»[5] مشاعر تعبر عنها الدلالات الزمنية في قوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ.

يشير هذا البيت إلى عدة حركات زمانية:

1- الحاضر: يشير الفعل "قفا" إلى الحاضر حيث يطلب الشاعر من مخاطبه الوقوف معه.

2- يشير الفعل "نبك" إلى الحاضر حيث يعبر الشاعر عن مشاعره في الوقت الحالي.

3- الماضي: يشير "ذكرى" إلى الماضي حيث يعبر الشاعر عن ذكراه

---

[1] – على الغيضاوي، الإحساس بالزمان في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ج 1، د ط، سنة 2001 م، ص: 251.

[2] – امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 168.

[3] – فتيحة قيعص، شعرية الزمن في مقدمات القصائد الجاهلية، ص: 38.

[4] – الفاتح صديق عبد الفراج أحمد، الوقوف والبكاء على الأطلال في شعر المعلقات الجاهلية، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، كلية التربية، جامعة كردفان، السودان المجلد 4، العدد 3، فبراير 2023، ص: 273.

[5] – الطيب بن جامعة، التقاطع الزمني، ص: 13.

2- مستويات الزمان عند لبيد بن ربيعة العامري:

تمثل مقدمات المعلقات، سواء سبعا أو عشرا ذروة إبداع الشعراء حيث تجسد ببراعة مشاعر الحنين والشوق إلى الديار والأحبة، ومن بين هذه المقدمات، تعد مقدمة معلقة الشاعر لبيد بن ربيعة تحفة فنية اِستثنائية، إذ استطاع من خلالها رسم صورة حية للواقع الذي عاشه، معبرا عن ألم الفراق وحزن الوحدة حيث «اِعتاد شعراء العرب في شعر الوقوف على الأطلال، أن ينادوا الديار بعد الوقوف عليها واعتادوا أن يسألوها عن أهلها الذين كانوا حلولا فيها في الماضي»[1] فمن خلال الطلل يعود الشاعر بالزمن إلى الوراء، مستعيدا لحظات جميلة عاشها في تلك الديار ومعايشا مشاعر الحزن والفقد التي خلفها رحيل الأحبة.

يظهر في مطلع معلقة الشاعر تنازع واضح بين مفردات شعرية تنتمي إلى حقلين دلاليين رئيسيين حقل من ماضِ الشاعر المأساوي الذي وجد نفسه عاجز أمام واقع الحاضر فلذلك «يلجأ الشاعر إلى الربط بين المعرفة بشكل عام وهذه الرؤية المأساوية للحياة»[2] إذن ومن خلال هذا تتضح لنا أدلة لغوية وعبارات دالة على ماضي الشاعر، فاِستخدم الزمن الماضي للتعبير عن ثبات الخراب والفراق والاندثار من خلال كلمات مثل: "عفت" و" تأبد" و"عري"، و"تجرم" و"جلا" و"ضمن"، كما استخدم الزمن الماضي للتعبير عن التبدل تجسده الكلمات التالية "رزقت" و"أطفت" و"صابها" "علا"

تتلاعب الأيام بذاكرة لبيد، فتتداخل صور الديار في الماضي والحاضر، حيث يرى في ذاكرته صور الديار كما كانت في الماضي، بينما يعيش واقعا مختلفا يعكس مَصَدَّ مأساته، فما كان في الماضي سببا لراحته، أصبح في الحاضر مصدرا لألمه، كما يفهم كمال أبو ديب في السياق الزمني للأطلال «أن كل أزمنة حركة الأطلال تندرج تحت

---

[1]- حسن عَزة، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، دراسة تحليلية، ص: 23.

[2]- عبد الله العشي، أسئلة الشعرية ، بحث في آلية الإبداع الشعري، منشورات الاختلاف الجزائر، ط 1، سنة 2009، ص: 132.

الأفعال الماضية من أول الطلل إلى آخره باستثناء الفعلين تأجل في البيت السابع ويبين في البيت للعاشر، ويحدث الفعل الأول في سياق الكينونة معا والتناغم بين الأمهات والأطفال التي كانت وستبقى مبعثا للأمان والاستقرار، ويشير الفعل الثاني "يبين" إلى استمرارية لوعة لبيد وكلا الزمنيين يحملان دلالة الزمن»[1] حيث يعيش الشاعر بحسه الشعري لزمن الماضي فبذلك يعترف بزمنه الحاضر الذي يذكره بضعفه وشيبه.

يترابط الطلل بحاضر الشاعر بشكل وثيق، حيث يشكل مرآة تعكس واقعه بكل تفاصيله ومظاهره إذ نجده «استعمل صيغة المضارعة "تجد" للدلالة على الإستمرار وتجدد الأثر جراء السُبُل "تأجل وهي تتأجل" على تكاثر الوحوش واجتماعها أما فعل "أسألها" فجاء بمعنى إنكار حال عدم امتثاله للخراب»[2] ولقد استعمل ألفاظا ذات دلالة معجمية على الزمن "حجج، غاد، علون، سارية حلالها، حرامها" في قوله:

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعدَ عَهدِ أَنيسِها حِجَجٌ خَلَونَ حَلالُها وَحَرامُها[3]

قد مضى على رحيل الأحبة سنوات بأكملها وحلت الآثار من الذين كانوا يؤنسونها ومرت السنوات بأشهر الحلال التي يكون فيها القتال يعني في أوقات السلام والحرب إذ يتبع هذا التنوع معجم الزمن من إحساس الشاعر العميق بأثره في تحول المكان.

يبرز أوج الإرتباط بين الزمن الماضي والحاضر في مقدمة القصيدة، حيث ينغمس الشاعر في تأمل اللحظة متخيلا إياها كأنها حاضرة بألوان مختلفة تماما عن واقعها وهذا ما أدى إلى «وجود وتشكل عدة دلالات في علاقات ثنائية متناقصة أي لا يمكن وجودها معا في آن واحد مثل "حلال، حرام" التي تحمل دلالة زمنية متناقضة ثابتة وتجرم، الحجج

---

[1]- كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة نحو المنهج البنيوي في دراسة الشعر الجاهلي،ص: 62.

[2]- بنديتو كروتشه، علم الجمال، ص: 27.

[3]- لبيد بن ربيعة العامري، الديوان،حققه وقدمه إحسان عباس، ص: 199.

التي تشير إلى استمرارية عنصر الزمن»[1]وبالتالي تتجلى دلالات التحولات الزمنية من خلال تفاعل العناصر المتناقضة والمتناغمة، مما يخلّد أثر الديار بعد رحيل أهلها.

وعلى ضوء ما تقدم يجسّد الطلل لحظة تحوّل حاسمة حيث يربط الماضي والحاضر والمستقبل، حاملا معه ذكريات الماضي كمقياس للمقارنة مع الحاضر، ومتطلعا إلى المستقبل بآمال عريضة، يفسر هذا الحضور الدائم للطلل في مستهل القصيدة عكسا للحاضر المرعب الذي يخفي جوهره الحقيقي، ولا يُكشفه إلى صدمة الماضي المشرق، إذ يجسد هذا التناقض سعي الشاعر للتحرّر من قيود الأماكن الضيقة التي تحصر الصورة الواحدة والانطلاق نحو آفاق واسعة حيث لا تسيطر الجمود بل تسود الحركة الدائمة المستمرة.

لقد رأينا كيف تعامل الشاعر الجاهلي ببراعة الإنسان الشرقي وتعلقه بالزمان كمرحلة قدسية تذكره حينا بالطفولة المفقودة، وحينا بالمحبوبة الموجودة وحينا بالرؤية المستقبلية لحياته القادمة غير المعهودة فشكلت بذلك هما متواصلا ترجمه الشعراء بشعرهم وخصوصا في البكائية الطللية فكيف نجد هذا عن المكان في تمظهراته ومستوياته عند الشعراء الجاهلين؟.

[1]- كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة، ص: 59.

الفصل الثاني

فلسفة المكان في الشعر الجاهلي

المبحث الأول: المكان في الشعر الجاهلي

المبحث الثاني: تجليات فلسفة المكان في المقدمة الطللية

المبحث الثالث: مستويات المكان ودلالاته في البكائية الطللية

أولا– المكان في الشعر الجاهلي:

يعد المكان عنصراً هاماً في الشعر الجاهلي. حيث يتجاوز كونه مجرد إطار جغرافي ليتحول إلى رمز يحمل دلالات عميقة تعكس مختلف جوانب حياة الإنسان الجاهلي ولقد «لقي أهمية كبيرة عند الشعراء الجاهليين أحبوه مسكونا وخاليا، حيا و ميتا، تغنوا به في أشعارهم، ففي المكان تتلاقى الأبعاد وتتماهى المسافات ويشترك المتلقي في رحلات متنوعة يختفي الحد الفاصل بين المعرفة واللامعرفة وتصبح الذاكرة واحدة فيفعمه بإحساس طوافه لتلك الأماكن بالتفاعل معه فيصف أماكن وإقامات ومناظر طبيعية ينقلنا بخصوص قراءاته الصبيانية خياليا إلى أقطار مجهولة تمنحنا للحظة الوهم بأن ننجو بها ونقطنها»[1]. فالمكان في هذا الشعر ليس مجرد فضاء فارغ، بل هو حامل للذكريات والأحاسيس ومسرح للأحداث ومعبر عن هوية الشاعر وانتمائه.

أدى المكان دورًا مهما في الشعر الجاهلي، فكان لبنة أساسية في بناء المعنى وتشكيل الصورة الشعرية «كان حاضرا في ذاكرة الشعر العربي أين يواجهنا الطلل في مقدمات الشعر الجاهلي خاصة والذي يعد دليلا على الصلة الوثيقة بين الشاعر وبيئته فكان يشاركه في معاناته الروحية والفنية ومواجهته لظروف الحياة»[2] فقد ساعد على فهم مختلف جوانب حياة الإنسان الجاهلي من علاقاته الاجتماعية إلى مشاعره وأفكاره.

تعتبر القصيدة الجاهلية مرآة عاكسة لحياة العرب في تلك الحقبة، بما تحمله من قيم وعادات وتقاليد. ومن بين العناصر الأساسية التي تشكل هذه القصائد، يبرز المكان كعنصر محوري لا ينفك عنها. «يكاد يكون المكان في القصيدة الجاهلية من أهم الركائز

---

[1]– Gemette. Figure 2. Edition de seuil Paris 1969.P:43.

[2]– زهرة بنيني، سيمياء المكان وتشكيل الدلالة في المقدمة الطللية للشعر الجاهلي، جامعة باتنة (الجزائر)، المجلد 17، العدد 2، سنة 2022، ص: 820.

والدعامات التي تتكون منها القصيدة، ولنا أن نصف الشعر الجاهلي بالشعر المكاني، لأن كل شيء يحدث في مكان لا فكاك منه»[1].

وبالتالي يمكننا القول إن الشعر المكاني يعكس جمال الواقع وعمق الاحتمالات في كل موقع.

يترنح المكان في عالم الشعر الجاهلي. كشاهد صامت على تفاصيل الحياة لذا ومن خلال هذا «كانت القبائل العربية وخاصة الشمالية منها في حركة دائمة بحثا عن الكلأ والماء، وكانت معبوداتهم في حركة دائمة ترحل مع المتعبدين وتستقر عند استقرارهم . ومن ثم عند نزول القبيلة في مكان ما توضع الأصنام في خيمة، تقوم مقام المعبد عند أهل المدينة، فكانت هذه الخيمة من أهم الأماكن المقدسة عند العربي، كما كان المكان التي تُثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه»[2].

لم تكن الخيمة مجرد مسكن بل كانت معبدا متنقلا ترافق قبائلهم أينما حلو ومتى ارتحلوا في رحلاتهم الطويلة عبر الصحاري فهي تمثل رمزا مهما ومكانا مقدسا يتغنى به الشعراء في قصائدهم.

كان السوق في العصر الجاهلي أكثر من مجرد مكان للتجارة، بل كان مسرحًا للحياة العربية بكل ألوانها وتشعباتها وتناقضاتها، ومنبعًا لإلهام الشعراء وإبداع قصائدهم الخالدة، لذلك «تحتشد الأسواق بفيض من الصور العميقة التي توضح لنا ما كانت عليه حياة العرب. وقد كثرت الأسواق في الجاهلية، واختلف أهل العلم والأدب في عددها؛ فذكر ابن الحبيب في كتابه "المحبر" أنها اثنتا عشرة سوقًا»[3]، «أما اليعقوبي في

---

[1]– منال عبد الفتاح حسين شتية، قداسة المكان في الشعر الجاهلي، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، سنة 2017، ص: 1.

[2]– مهران، الحضارة العربية القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،د ط، سنة 2008، ص:469.

[3]– ابن حبيب أبو جعفر محمد، المحبر، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، سنة 2009، د ت، ص: 263.

كتابه "تاريخ اليعقوبي" فقال إنها عشرة»[1] «غير أن المرزوقي في كتابه "الأزمنة والأمكنة" ذكر أنها سبع عشرة سوقًا»[2] وأيًّا كان عددها، فقد حظيت بالاهتمام والمكانة البالغة في تسويق الشعر وفي حياة العرب في الجاهلية.

يعود تاريخ سوق عكاظ إلى العصر الجاهلي، حيث كان يُقام سنوياً في شهر ذي القعدة، وكانت من أهم الأمكنة في هذا العصر، فهي «المكان الجامد التي كانت لتبادل المصالح التجارية المشتركة، تنقلب إلى مكان تمتد متعلقاته إلى الروح والعقل والقلب، ومما زاد في قداستها ومكانتها إذ كانت تُقام في الأشهر الحرم، حتى إنّ الرجل فيها يلقى قاتل أخيه أو أبيه، فلا يُهيجَه وحدث الصلح بين العباسيين والذُبيانيين في سوق عكاظ، فهدئت حرب داحس والغبراء»[3].

برزت الآبار كعنصر هام في الشعر الجاهلي متجاوزة وظيفتها الأساسية كمنبع للحياة في بيئة قاحلة لتصبح رمزا غنيا ودلالة عميقة تعكس مختلف جوانب حياة العربي الجاهلي حيث «اتخذت طابع القداسة جراء صلتها بالماء الذي هو أُس الحياة وأساسها وخاصة في المناخ الذي تتميز به الجزيرة العربية حيث كان للماء الأثر الواضح في حياتهم الاجتماعية فكثر انتقالهم من مكان إلى أخر طلبا له. وكان السبب في اقتتال القبائل فيما بينها »[4]، «كان ذلك باعثا لتعظيم المياه ومواردها وإليها عزوا روحا تمتلك قوة خارقة للمعتاد تعيد الحياة لكل ما أوشك على الهلاك، فكان العرب إذا حفروا بئرا أو ظهر لهم مياه عذبة غزيرة يقدمون إلى آلهتهم الحمد والشكر والنذور»[5] باعتبارها رمزا للحياة

---

[1] – اليعقوبي، أبو جعفر أحمد ابن إسحاق، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، 1960 م، ج 1، ص:270.

[2] – المرزوقي، أحمد بن محمد بن حسن، الأزمنة والأمكنة، ضبطة خليل المنصور دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، 1996، ص: 382.

[3] – الحوت محمود سليم، في طريق الميخولوجيا عند العرب، دار الكتب، بيروت، د ط، سنة 1979، ص:19.

[4] – منال عبد الفتاح حسين شتية، قداسة المكان في الشعر الجاهلي، ص:53.

[5] – علي جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام،ص: 312.

والازدهار تظل الآبار في الشعر الجاهلي تُعبر عن أهمية المكان والمفهوم في ثقافة العرب القديمة.

للآبار أهمية بالغة واهتمام واسع المجال إذ تعد مكانًا مقدسا حيث تمثل منبع الحياة والخير في حياة العرب بصفة عامة « فالجاهلي نسب للآبار سرا غامضا مما جعلها على معرفة بأمر الغيب فتوسل لها، وتذلل عندها لمعرفة القدر، فكانوا إذا ما طال انتظارهم لغائب و لم يعد ذهبوا إلى بئر قديمة شديدة العمق ونادوا باسم الغائب ثلاث مرات فإن لم يسمعوا صوتا فهو ميت في اعتقادهم»[1].

كما أنّ من أهم الأمكنة التي احتلت موقعا متميزا لدى الشاعر الجاهلي هي الأطلال، لأنها تعبر عن تعلقهم بذلك المكان فـــ «الطلل لُبَّ المكان عند الشاعر الجاهلي لا يفنى ولا يزول، وإن غادره الأهل والأحباب وإنما يبقى نابضا بالحياة في نفس الشاعر فهو يمثل نموذجًا عقديا في العصر الجاهلي، فرضته البيئة الصحراوية»[2] تظل الأطلال محوراً أسياسيا في الشعر الجاهلي حيث تمثل رمزا للوحدة والصمود والتمسك بالذكريات والتراث. إنها مكان لا يتلاشي في عقل الشاعر بل يبقى عالقا كالوشم نقش على جسد أو كصبي تعلق بأمه، ويعبر من خلاله عن قيمه ومعتقداته.

المكان له مذاق عذب في نفسية كل إنسان وإذا ما تطرقنا إلى المكان في العصر الجاهلي، فإنه يلعب دورًا مهمًا في حياة الجاهليين، إذ عاشوا في بيئة قاسية، فارتبطت طقوس حياتهم بالتنقل والترحال بحثًا عن الماء والمرعى «إذ يمتلك كل مكان مذاقًا خاصًا وطعمًا متميزًا، يختلف تبعًا للأحداث التي اختلطت به أو التي وقعت فيه فهذه الأماكن هي التي جمعته يومًا بمن أحب، أو هي التي شتّت شمل أحبته فصلة الشاعر بهذه الأماكن

---

[1]– النعيمي أحمد، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، سينا للنشر، مصر، د ط، سنة 1955، ص: 169.

[2]– عسكر قصي الشيخ، أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة، دار معد، دمشق، د ط، سنة 2007، ص: 109.

هي صورة أخرى لصلته بمن أحب»[1] لذلك انعكس هذا على شعرهم وقصائدهم، فأصبح المكان قصرًا مشيدًا لابد من الاستمتاع بجمالياته.

ظل المكان في الشعر الجاهلي حاملاً لواء البطولة، إذ لا يمكن تجنبه من قبل الشاعر في قصائده لأنه يلعب دورًا مهيمنًا يعكس المشاعر والتجارب الشخصية للشاعر. فعلى سبيل المثال، «يمثل الطلل بالنسبة للشاعر قطعة متلازمة من حياته لا تهرم، إذ يحاول في هذا الفضاء إحياء المكان من جديد وبعثه من لُجَّةِ الموت وبأساليب شتى كاستنبات الكلأ واستنزال المطر وإسكان الحيوان بالمكان وغيرها...»[2] وبهذا يظهر جليًا بأنه مرآة عاكسة للمشاعر، يصول ويجول في ذات الشاعر متى تذكر، وحيثما حل بالديار التي توقظ فيه الأيام الخوالي.

لقد أخذ الحديث عن المكان في الشعر الجاهلي حيزًا واهتمامًا كبيرًا من قبل النقاد والباحثين، إذ يعد من أهم المحركات التي تحدد مسار حياة الإنسان الجاهلي ، لذا نجد ابن قتيبة «يفسر المكان في الشعر القديم من خلال حديثه عن بداية الشعراء بذكر الديار وحديثهم عن الرحلة، فرأى بأن الشاعر بدأ قصيدته يذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الضاغنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظغن على خلاف ما عليه نازلة المدد، لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان»[3]واستناداً إلى تفسير ابن قتيبة يصبح المكان مسرحًا تتجلى فيه البطولات، لأنه عاكسا لمسار وشخصية ومشاعر الشاعر، حيث يبرز في قصائده علاقته المترامية الأطراف المبنية على عمق المكان والدلالة المترصعة فسيخدم ويذكر الأماكن والرحلات ايماناً منه بأنها هي التي توقد المشاعر وتلهب الأفكار.

---

[1]- منال عبد الفتاح حسين شتية، قداسة المكان في الشعر الجاهلي، ص: 127.

[2]- حسن حسين الحاج، أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 2، سنة 1990 م، ص: 57.

[3]- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء ، تحقيق احمد شاكر، ص: 84 – 85.

وإذا رجعنا إلى تفسير ابن رشيق، نجد أنه يقدم تفسيرًا دقيقًا ويمدنا بمعانٍ بالغة لمفهوم المكان في الشعر الجاهلي ، حيث يرى أن ذكر الديار يقتصر على شعراء البادية دون سواهم، وذلك لارتباطهم الوثيق بالبيئة الصحراوية ورحلاتهم المتكررة. فالمكان في شعرهم ليس مجرد فضاء ساكن بل هو مسرح للحياة والرحلة والصراع «فطرائق أهل البادية تتضمن ذكر الرحيل والانتقال وتوقع البَيْن، حيث كانت حياتهم في البادية دعتهم لذكر الديار والرحيل، فهم أهل خيام ينتقلون من موقع إلى آخر، ولذلك أول ما تبدأ به أشعارهم هو ذكر الديار»[1] يركز ابن رشيق كيفية ربط البادية بالبيئة في الشعرحيث يرى أن المكان ليس مُجرد فضاء ساكن بل هو مسرحٌ يتم فيه لعب الحياة والرحلة والصراع، ومن خلال هذه التجارب يجد شعراء البادية نفسهم مضطرين لذكر الأماكن والرحيل بينها، فهي نقطة انطلاق أشعارهم ومحورها.

غاص الدارسون المحدثون في أعماق القصيدة الجاهلية يبحثون عن أسرار المكان ودلالاته، فكان الطلل شمسًا ساطعة اجتذبت أنظارهم، ونقطة ارتكاز أساسية، ومنطلقًا أساسيًا لفهمهم لتلك القصائد الخالدة، وهذا ما نجده عند فالتبراونة، إذ يقول «الوجودية واختيار القضاء والفناء والبكاء عليه ودليله على ذلك تكرار عبارات عفت الديار ودرست الدمن وأمحت الرسوم، كما يستدل على رأيه بوجود أبيات كثيرة لشعراء جاهليين، عدا الأبيات الطللية يتحدث فيها الشاعر عن موقفه من الحياة والموت، ثم يسوغ قول الشاعر "دع ذا" بعد بكائه على الطلل، أن الشاعر بعدما نظر إلى تهديد الوجود بجرأة أكيدة اكتسب نشاطًا جديدًا وعزمًا وقوة، فالعمل ليس ممكنًا إلا إذا أدرك الإنسان أن وجوده محدود ومتناه»[2].

---

[1]–ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد يحي الدين عبد الأمير، ص: 299.

[2]– فالتبراونة، الوجودية في الجاهلية، مجلة المعرفة السورية، السنة الثالثة، العدد 4، حزيران، 1973، ص:158 - 171.

ومن التفسيرات والآراء الأخرى المتباينة والمتضادة، نجد عز الدين أسماعيل يتحدث في كتابه "التفسير النفسي للأدب" عن التشكيل المكاني في القصيدة الجاهلية، حيث يرى ويبرز أن «حقيقة المكان في الشعر نفسية وليست موضوعية، أي أن الصفات الموضوعية في المكان مفروضة على المكان وليست خصائص كامنة فيه لتشكيل الشاعر المكان، إنما هو تعبير عن حقيقة المكان النفسية»[1] بموجب هذا التفسير، نستنبط أن التشكيل المكاني يعكس حالة الشاعر النفسية وعواطفه، مما يجعل المكان ليس مجرد خلفية موضوعية بل يصبح تعبيرًا عن الحالة الداخلية والتجارب الشخصية، الامر الذي يعزز ارتباطه بالجوانب النفسية والشجون العاطفية.

يفرض المكان نفسه في ثقافة وأدب العرب الجاهليين، خاصة في الشعر الجاهلي ويعزز مكانته، إذ فسر أدونيس المكان تفسيراً وجوديًا «فصور الشاعر الجاهلي عاجزًا أمام المكان، يرى في الطبيعة واقعاً مفروضاً عليه بخشونته وصلابته... ومن هذا المنطلق، كانت الهجرة وكان الانتقال وسيلة لإشباع الذات وتوكيدها، وبما أن الإنسان الجاهلي كان يرى العالم بلا قاعدة محكمة، لكونه لا يؤمن بإله خالق يدمر الكون، فقد رأى في الدهر قوى خارقة لا تقاوم، فهو عاجز أمام هذه القوى وليست قوة الموت بل قوة الغياب، غياب للحبيبة والأهل والربع»[2]. ترتسم معالم المكان وتأثيره البالغ من خلال هذا التفسير على الشاعر الجاهلي، حيث يفرض المكان تجلياته، كما أنه يعطي نظرة مفصلة على تجارب البشر وتفكيرهم في ذلك العصر. فيصبح المكان طريقًا معبدًا تسير عليه أفكار الشاعر، ومبراصا مرصعًا تتنامى حوله ذكرياته.

وهذا يوسف حسني يعطي تفسيراً ومفهوماً آخر للمكان، ويقدم رؤية جديدة ومختلفة في قوله أن «الطلل يحمل أبعاداً عدة، فهو استحضار للماضي وحنينٌ إليه، فوقوف الشاعر بالطلل إجترارٌ للذكريات وامتلاك الماضي والتخلص من سيطرته، وهو

---

[1]- إسماعيل عز الدين، التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، الفحالة، ط 4، د س، ص: 58 – 59.

[2]- سعيد علي أدونيس، ديوان الشعر العربي، دار الفكر، بيروت، ط1، سنة 1987 م، ص: 18 – 28.

تعبير عن تجربة واضحة وواقعية يحياها الشاعر، كما أنه تجسيد للتجربة الوجودية مع الحياة والعدم»[1]. فقد استخدم الطلل كرمزٍ لخلو الديار وزوال الحبيب، لكنه لم يقتصر على هذا المعنى الحرفي بل تعداه وتجاوزه ليحوله إلى رحلة عبر الزمن، حيث يستحضر الشاعر الماضي فتحضر كل جوانبه ما كان فيها حلو ومر من ذكريات وأحاسيس، ويحاول امتلاكه والتحرر من سيطرته.

عاش الشاعر الجاهلي في بيئة صلبة قاسية، شديدة المراس، ومتقلبة الجوانب، مبعثرة متغيرة الظروف والطقوس باستمرار، فكان للتحولات الطبيعية والأحداث الاجتماعية تأثيرًا كبيرًا على نفسية الشاعر لذلك نجده «خاض مخاضاً عسيرا مع الأماكن، فلم يتقبل التحولات التي طرأت عليها لأنها كانت تنبئ في كل تغيير نفيًا وغيابًا أبديًا لساكنيها، وبالتالي الحصار على نفسيته، ولكن رغم ذلك بقي متعلقاً، متشبثًا، يصارع بعودة للحياة إليها»[2].

وهكذا نهتدي بأن الشاعر في ذلك العصر خاض صراعًا شرسًا مع المكان، حتى أصبح يشكل لديه وجعًا يؤلمه في نفسيته، لأن كل مذكر تهتز له الأحاسيس، وتهيج العواطف، ويحضر الحنين، فتدمع العين، ويحن القلب معها لذكريات زرعت الشوق والتشوق إلى من هاموا وارتحلوا.

لقد تحول المكان بفعل عبقرية الشاعر إلى أداة للتعبير عن دواعي نفسه ومواقفه الكامنة الدفينة «إذ كان المكان بالنسبة له أرضًا خصبة للتعبير عن مختلجاته وما يجول في خاطره ومشاعره، مما جعله يتحول إلى غرض خاص لتلبية الدواعي والمواقف الكامنة في نفسيته، يرسم فيه أبعاده الاجتماعية والنفسية التي تحمل في طياتها معالم ودلالات مختلفة،

---

[1]- يوسف حسني، الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د ط، سنة 1977 م، ص: 128 – 131.

[2]- بن بغداد أحمد، دلالة المكان في الشعر الجاهلي، المركز الجامعي ، أحمد بن يحى الونشريسي، تيسمسيلت ، العدد17، جوان2017، ص:169.

تتم فيها عملية التذكر والتخيل التي تجعل القارئ يتعرف على العلاقة القائمة بين المكان والشاعر»[1].

ها هنا ومن خلال هذا التحليل، يصبح المكان بساطًا مفروشًا، تتلاقى فيه مشاعر الشاعر مع ذكرياته، وتتقاطع لتُكَون لنا سَرْحًا ممزوجًا، معبرًا عن التداخل والتكامل والصلة الوثقى التي تربط الشاعر بالمكان والعكس صحيح، فيصبح قادرًا على مشاركة تجاربه الداخلية.

ينبثق الشعر الجاهلي من رحم البيئة العربية الجاهلية، حاملاً بصماتها وسماتها ليعكس واقعها بكل تفاصيله. لذلك إن «أهم ما يميز الشاعر الجاهلي عموماً هو مدى ارتباطه بالبيئة التي أنجبته، ووسمت شعره بسماتها الواقعية، فغدا مرآة يرى من خلالها ملامح ومظاهر ببيئته الاجتماعية بكل تنوعاتها ومستويات التجلي فيها»[2] «فهو يرتبط بالمكان ارتباطاً وثيقاً، فسماته ظاهرة في قصائد الجاهليين، تلك التي تتنوع بتنوع البيئة وتتلون مظاهرها الطبيعية والنباتية والحيوانية»[3]إذًا: من خلال هذا، يعد فهم ارتباط الشعر الجاهلي بالبيئة ضرورياً لفهم طبيعة الحياة وكذلك، يؤكد هذا الارتباط على قدرة الفن على تجاوز الواقع والتعبير عن المشاعر الإنسانية بعمق وتأثير لا يضاهى.

لم يكن المكان خلفية ديكورية للقصيدة، بل كان عنصرًا حيويًا ولبنة أساسية يتفاعل معه الشاعر، ويشكل مسرحًا لأحداثها وعليه يعتمد بناء القصيدة وما تحمله من أفكار، فقد أصبح «مرآة عاكسة والهاجس الذي يراود الشاعر في كل لحظة ويشغل تفكيره بين حين وآخر، حتى أن الشعراء والأدباء قد تسابقوا وتفننوا في وصف المكان وتجلياته أياً كان، فأصبح عنصرًا أساسيًا في القصيدة تظل علاقته بالشاعر علاقة سامية

---

[1]- عمار بن لقريشي، دلالة المكان في الشعر الجاهلي، جامعة محمد بوضياف المسيلة، حوليات الآداب واللغات، مج 2016، العدد 7، ص: 87.

[2]- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 206.

[3]- محمد زغلول سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي، دراسة في البيئة والشعر، د ط، دار المعارف، الإسكندرية ، مصر، د ت، ص:11.

رفيعة أثرها الشاعر في شعره فهي تُعبر عن تجارب خاصة ورؤية تأملية يمتزج فيها التأمل بالتجربة الإنسانية الواقعية العميقة بالحياة والناس»[1] يظهر واضحًا بأن الشعراء في الجاهلية يُسقطون مشاعرهم وأفكارهم على المكان إسقاطًا حرًّا، حيث يتفننون في وصفه بأدق العبارات، يمتزج فيها التأمل بالتجربة الواقعية.

إن ارتباط الإنسان ببيئته وثقافته وموروثه يعد منبعًا بالغ الأثر في سمات وصفات العربي الفذ، ذلك هو الارتباط الذي يعد مصدر إلهام للحياة، ويتجلى هذا الارتباط وهذه العلاقة في الشعر الجاهلي، إذ أن «أصالة المكان في الشعر العربي أصالةً جعلت من هذا المكان تقليدًا فنيًا متعارفًا عليه في عموم القصيدة الجاهلية، تَمَثل ذلك في الوقوف على الأطلال، تذكيرًا بالأطلال النفسية المتمثلة في ضياع الأهل، أو ضياع الحبيب برحلته ومغادرته المكان الذي ألف الشاعر لقاءه فيه، فلا أقل من الوقوف على الطلل إن هجره ساكنوه»[2] يتبين لنا من هذا أنه لا يمكن أن نقف ونفهم الشعر العربي إلا من خلال إدراك أهمية المكان ودوره الرئيسي في بناء القصيدة، فهو جوهرها الأساسي الذي تنطلق منه رحلة الشاعر الإبداعية والفكرية، وهو المسرح الذي يعرض فيه تفاصيل مسرحيته وتذكراته وتخيلاته.

تُعد البادية المنشأ والملاذ للإنسان العربي في العصر الجاهلي قبل الإسلام، حيث ارتبط الشاعر بهذه البيئة ارتباطًا لا تشوبه شكوك ولا ظنون، فقدّم شعره في ظل أطيافها لذلك نجد أن «الشاعر له علاقة وطيدة بالمكان، فكانت حياتهم قائمة على الرعي والتجارة... فالشعراء كانوا ينتمون إلى البوادي والقبائل المختلفة، فلذلك ارتبط الشاعر بالمكان الذي ينتمي إليه، وأصبح يتغنى بحياته التي كانت مرتبطة بذلك المكان، الذي ترك

---

[1]- فواز معمري، "جماليات المكان في الشعر الجاهلي" (المعلقات أنموذجا)، إشراف عمار قريشي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص علوم في الأدب العربي، جامعة مسيلة ، الجزائر، سنة 2017 - 2018، ص: 41 – 42.

[2]- يوسف شريف، شعرية المكان في ديوان علي ابن الجهم، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، سنة 2016 – 2017، ص: 17.

أثرًا في شعره»[1] هذا التداخل والتشابك بين الشاعر وبيئته يوحي لنا أن العلاقة علاقة تشبث وتعلق بالمكان الذي ولد وترعرع فيه. فهو منبع إصداراته من مغنى وقصائد، وأفكار جعلته يقدم شعره في طبق عمقه ببيئته وأطرافه وحواشيه، وجذوره المتغلغلة في أعماق هذه البيئة.

قبل الإسلام كان الشاعر يُشكل جزءًا لا يتجزأ عن الحياة الاجتماعية والثقافية في المجتمعات العربية، حيث كانت علاقته بالمكان وثيقة ومتماسكة إذ تميز شعره تميزا ملحوظا، لذلك «احتل المكان في الشعر الجاهلي حيزًا واسعًا، لأنه يعيد خلق صورة الألفة ويزيد من سطوعها وتعميقها حد انفصال مكان الشاعر نفسه عن مكان القصيدة، فتوظيف المكان عند الشاعر يرتبط بالحدث والزمن ليحافظ على صلته بالواقع»[2] إن مكانة المكان في الشعر الجاهلي تتباين وتصبح آخذة في حيز واسع، لما له من امتداد في تنوير الساحة الشعرية وإعطائها صورة واضحة المعالم، جديرة بالقراءة، فالشاعر تعلق بالمكان ووظفه في شعره لأن ذاته فرضت عليه ذلك، لأنّه يحمل الماضي في ذاكرته فترل به إلى ساحة تحمل مكنوناته الداخلية وبسط بها تعبيرا وهوسًا.

إن حضور المكان وتموقعه في القصيدة الشعرية في الجاهلية، بسط آثاره وتخندق في لبها وجوهرها وتغلغل عميقًا في ثناياها، لأنه جزءا أساسيا من الوجدان الإنساني وثقافة الشاعر فإذا «تتبعنا ملامح صورة المكان في قصائد الشعر الجاهلي، نجده كان حاضرًا بقوة في حياتهم ووعيهم، وبالتالي في قصائدهم ذلك أن الواقع الحياتي القاسي كان يرخي بظلاله الكثيفة على حياتهم فالإنسان الجاهلي كان يحيا لفهم المكان بكل أبعاده، فهو حزنه وفرحه وشبابه وماضيه المجيد، كل هاته العلائق التي ترتبط بالمكان عكستها أشعاره حيث كان الترحال سبب معاناته لأنه يجعله يفارق أماكن أحبها وألفها فصارت جزءًا

---

[1]- المرجع نفسه ، ص: 18.

[2]- كمال نجم الدين، المكان في النص الشعري، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، سنة 1978 م، ص: 120.

منه»[1] لقد التصق المكان بهوية وإبداع الشعراء فصار قطعة محكمة التلحيم، لا يمكن فصلها عن الحياة الشخصية والتجارب الواقعية، فالمكان جسد عمق الارتباط بشكل فعال بين الشاعر وماضيه، كما شكل الألفة التي تعطي الشاعر إلهامه ليسرد ما اختلج صدره.

تجسدت صورة المكان في أعمال الشعراء في الجاهلية كمصدر إلهام أساسي، يتغذى منه المشاعر لينقل تجاربه ومشاعره بأسلوب يعكس تفاعله العميق مع بيئته وظروفها. لذلك قد «استمد الشاعر الجاهلي أحاديثه عن المكان من خلفيات الدواعي والأسباب التي كانت تدفعه دفعًا إلى إعادة تشكيله واعتزازٍ بذكره، ذكرًا عابرًا أو تنويهًا أو فخرًا راسخا في كيانه، فحياته كانت غارقة في المادة لا يتجلى لها الوجود إلا من خلالها وذلك من ضائقة العيش وقسوة الأرض والسماء وكثرة الأخطار المحدقة به كل ذلك دفعه إلى أن يستلهم من المادة تعبيراته»[2] وهنا يظهر الشعراء في العصر الجاهلي كرواد يستنبطون إبداعهم من خلال تفاعلهم الوثيق مع المكان والظروف المحيطة بهم، مما جعل للمكان دورًا في شكل ومضمون قصائدهم.

إن الانتماء والعيش وسط بيئة ما يفرض علينا التأقلم والمجاراة مع ظروفها، فلا يمكن أن نسبح عكس التيار وإلا جرفنا السيل، فطبيعة البيئة تجعلنا نتماشى وظروفها وإذا ما عرجنا إلى الشعر الجاهلي، فالبيئة والمكان لهما أثرًا بالغ الاهتمام في تركيب القصيدة الشعرية، لأن الشاعر يستلهم منها، حيث كان «الارتباط بالأرض والحنين إلى المكان منبته الأول عَلِقَ بذهن العربي سواءً كان فردًا أم جماعةً، وقد ترجم هذا الارتباط الوشيجي بالانتماء إلى المكان في تجربة الشاعر الجاهلي لظروف فرضتها طبيعة تكوينه المادي المجسد، في صراعه مع الطبيعة القاسية مما أعطى استجابة بين الذات في وعيها

---

[1]- كارلين صادر، من شعراء الأمكنة في العصر العباسي، المعرفة 44505 (شعبان 1426 هـ تشرين الأول 2000 م)، دمشق، ص:222 .

[2]- زكريا صيام، دراسة في الشعر الجاهلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1984، ص: 48.

الفاجع من الفراغ الروحي والشعور الداخلي بالطمأنينة، وبين حقل الكون ضمن الواقع الخارجي الذي منح الإنسان إمكانات التفرد والعزلة، فأصبح تعلقه بالمكان أمرًا محتومًا»[1] لقد صال وجال المكان في ذهنية شعراء الجاهلية، فارتبط اِرتباطًا وثيقًا بذواتهم حتى أصبح شعرهم لا يكاد يخلو منه.

شكّل المكان عنصرًا فعالًا ودورًا أساسيًا في قصائد الشعراء، حيث عبروا عن علاقاتهم العميقة من خلاله وأعْطو تصويرًا مفصّلا للطبيعة والبيئة التي يعيشون فيها وهذا مدّ شعرهم بالواقعية والانجذاب، وهنا سوف نُعمّق النظر في فصل آخر ألا وهو كيف كان تعامل الشعراء مع هذا المكان في مقدماتهم الطللية ؟

لقد لعب المكان دورًا محوريا في توطيد العلاقة بين الشاعر وبيئته، إذ تجاوز المكان كونه مجرد خلفية للأحداث ليصبح ركيزة وأحد أعمدة البناء في القصيدة، فهو بذلك يعكس مشاعر الشاعر ويصوّر أفكاره وهنا لزم علينا طرح السؤال: كيف وظّف الشعراء المكان في مقدماتهم الطللية ؟ وكيف ساهمت هذه الأماكن في خلق التأثير الشعري المطلوب؟

ثانيا– تجليات فلسفة المكان في المقدمة الطللية:

1– تجليات فلسفة المكان عند زهير بن أبي سلمى:

إن تشعّب الشعر الجاهلي في مضامينه ومحتوياته، وفي قصائده أعطى له صبغة خاصة، حيث لعبت القصيدة الطللية دورًا مهمًا في وصف مشاعر الشاعر من حنين وأسى عند رحيل المحبوب أو عند تذكره لتلك الديار، ويلعب معها المكان ويقاسمها نفس الأدوار، حيث يتحول إلى رمز للحب والفراق ويؤجج مشاعر الشاعر ويعمق أحزانه وهذا ما نراه عند شاعرنا "زهير بن أبي سلمى" إذ يقول:

---

[1]– عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، سنة 1998 م، ص: 252.

أمِـــنْ أُمِّ أَوْفَـــى دِمْنَـــةٌ لَـــمْ تَكَلَّـــمِ بِحَوْمَانَـــةِ الـــدُّرَّاجِ فَـــالْمُتَثَلَّمِ

وَدَارٌ لَهَـــا بِـــالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَـــا مَرَاجِيـــعُ وَشْـــمٍ فِـــي نَوَاشِـــرِ مِعْصَـــمِ

بِهَـــا الْعَـــيْنُ وَالْـــأَرَامُ يَمْشِـــينَ خِلْفَـــةً وَأَطْلَاؤُهَـــا يَنْهَضْـــنَ مِـــنْ كُـــلِّ مَجْـــثِمِ

وَقَفْتُ بِهَا مِـــنْ بَعْـــدِ عِشْـــرِينَ حِجَّـــةً فَلَأْيًـــا عَرَفْـــتُ الـــدِّيَارَ بَعْـــدَ التَـــوَهُّمِ

أَثَـــافِيَّ سُـــفْعًا فِـــي مَعَـــرَّسِ مِرْجَـــلٍ وَنُؤْيًـــا كَجِـــذْمِ الْحَـــوْضِ لَـــمْ يَتَـــثَلَّمِ

فَلَمَّـــا عَرَفْـــتُ الـــدارَ قُلْـــتُ لِرَبعِهـــا أَلا أَنْعم صَـــباحاً أَيُّهـــا الرَبـــعُ وَاِســـلَمِ[1]

تعامل الشاعر مع المكان في مقدمته الطللية، والدي يتمثل في الاطـــلال حيـــث اســـتهل معلقته بوصف ديار الحبيبة بعد رحيلها وقـــد طالتـــها عوامـــل الـــزمن والتآكـــل، فصـــارت أطلالاً عتيقة، إذ «يضعنا أمام صورة الوقوف علـــى الطلـــل، مغتربًـــا عـــن المكـــان وحيـــدًا تجمعه به الذكرى، تذكر المكان الذي سكنته الحبيبة أم أَوْفَى، بتســـميات مختلفـــة: حومانـــة، الدرّاج، الرقمتين، والتي أصبحت صورة دالة على الخراب بوجـــود الســـكان فيهـــا»[2] وهـــذا ما يُوضح لنا، بأن المكان يمثل أثرًا كبيرًا على نفسية الشـــاعر، فكـــل ركـــن فيـــه يـــذكره بالحبيبة ويثير ما دفن في خلجات نفسه من حُزن وأسى.

إن التعود والاعتياد على المكان يجعلنا نألفه بروحنا ومشـــاعرنا، فهـــو يشـــعرنا بالأمـــان والراحة النفسية، فهو بالنسبة للشاعر عربون الوفاء والإحســـاس بالطمأنينـــة إذ نقـــف معـــه عند لوحة مكانية خالصة «تتشكل فوقها خطـــوط وألـــوان مختلفـــة رسمتـــها يـــده ببكائـــه وذكراه عند المكان الذي يرتبط به ارتباطا وثيقا، والـــذي يؤكـــد علـــى انتمائـــه لـــه عقليـــا وروحيا فهو مكان الألفة الذي يمثل حالـــة الارتبـــاط البيئـــي المشـــيمي بـــرحم الأرض الأم ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا»[3].

---

[1]– زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فـــاروق الطبـــاع، دار الأرقـــم، بـــيروت، د ت، ســـنة 2016، ص: 64 – 65.

[2]– زهرة بنيني، سيمياء المكان وتشكيل الدلالة في المقدمة الطللية للشعر الجاهلي، ص:822.

[3]– اعتدال عثمان، إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، سنة 1988 م، ص: 6.

ينتصب الطلل بقامته شامخًا كعتبة شعرية يركبها الشاعر ليطل من خلالها على عوامله الداخلية ويشكل بها مستهلا لقصائده، إذ يمثل بوابة زمنية تعيده إلى رحلة عبر دروب الذاكرة مستحضرًا ذكريات الماضي وكشاهد على رحيل الأحبة إذ يقول:

أمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةُ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وَدَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ[1]

يظهر لنا من خلال هذين البيتين مجموعة من الأماكن «وهي ترتبط بحالة تذكر يعيشها الشاعر، والمكان هنا أصبح معزولا عن شرطه الإنساني. ذلك أنه لم يُعد سوى بقايا آثار لم تدرس بعد بشكل كلي ولكن أهميتها تأتي بما تثيره لدى الشاعر ثم لدى المتلقي من ذكرى إنسانية ينقلها إلينا الشاعر بالتدريج لتصبح تجربته الخاصة في المكان تجربة عامة لنا نحن القراء»[2] ولعلّ أهم ما يميز تعامل الشاعر مع المكان في هذين البيتين هو قدرته على ربطه بالعالم الإنساني، وتحويله من مجرد فضاء مادي إلى مسرح لتجربة عاطفية ثرية نزيهة.

يفتتح الشاعر قصيدته بوقوفه على آثار ديار الحبيبة، تلك الديار التي كانت بالأمس القريب تدب فيها الحياة وتنبض فيها الأنفاس، فهي اليوم خاوية على عروشها إذ يقف المشاعر هنا «أمام مشهد من مشاهد الشجن ولوعة الفراق وهو أمام بيت محبوبته **أُمِّ أَوْفَى**، وقد أثارت في نفسه ذكريات الأيام السالفة، فهزته أشواق الحب والحنين، ها هي ذي دار الحبيبة قد صارت أطلالا غيرها البلى وصروف الزمان حتى كأنها مراجيع وشم

---

[1]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق، ص: 64.

[2]- عبد الله رضوان، البنى الشعرية دراسات تطبيقية في الشعر العربي، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، د ط، سنة 2005، ص: 192.

في نواشر معصم»[1] وهنا يخيم الحزن على سمائه فيفرق في ظلال الحزن والأسى، وهو يرى بقايا الديار التي كانت شاهدة على لحظات الفرح والبهجة والسعادة، قد تحولت ردمًا ونسيًا منسيا، بل تحولت إلى رماد يتناثر في مهب الرياح.

يُطل الشاعر على أطلال الحبيبة، لكنه يُفاجَئ بحيرة تسيطر على مشاعره، حيرة مصدرها عدم وضوح معالم المكان وتغير ملامحه بفعل الزمن، حيث بدأ معلقته بالتساؤل عن مكان أُمِّ أَوْفَى الذي أصبح في موضعين هما: حومانة، الدُرّاج، فأخرج الكلام في معرض الشك لأنه بسبب بعده وانقطاعه عن الدمنة وما اِعتراها من تغير لم يعرفها معرفة قطع وتحقيق حاول الاستخبار عن حبيبته أُمِّ أَوْفَى داخل هذه الأماكن الموجودة ينجد شبه رسوم دارها بوشم في المعصم قد ردد وحدد بعد اِنمحائه»[2] وهكذا يقف الشاعر أمام دهشة وحيرة غيرت أنفاسه وبواطنه وحركت الحنين والاشتياق في جوانبه، بعدما تغيرت ملامح الديار ومعالمها بفعل الزمن.

يضع الشاعر بوصلته فيحدد المكان بدقة ويركز على معالمه وجوانبه فيذكر الآثار والركام والعلامات الباقية من الديار مما يضفي على الوصف جمالية وواقعية ملموسة جديرة بالمكان إذ أنه من «الصور الشائعة في المقدمة الطللية أن يبدأ الشاعر بذكر "**المكان**" الديار ويحدد مكانها ويذكر ما جاورها من مواضع ... ويصف مشهد الرحيل وهودج المحبوبة وفي ذلك دلالة واضحة على شدة تعلقه بالمكان الذي يعني له الوطن»[3] وهذا ما يبين لنا إبداعه في توظيف المكان كعنصر أساسي في مقدمته الطللية، إذ بدونه تغيب رمزية عواطفه.

---

[1]– محمد عبد الواحد حجازي، الأطلال في الشعر العربي، دراسة جمالية، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، د ط، سنة 2013، ص: 201.

[2]– فيصل فلقت، أعلام المكان في المعلقات السبع (دراسة دلالية)، كلية الآداب واللغات ، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة ، الجزائر، سنة 2022 – 2023 ،ص: 31.

[3]– إحسان محمود سليمان، المكان في المقدمات الطللية في شعر المعلقات، (دراسة نقدية تحليلية)، مجلة البحث العلمي في الآداب، يناير 2020، كلية التربية والآداب جامعة تبوك، ص: 207.

إن نقطة الارتكاز وأولية المنطلق هي المكان لبسط هوية الشاعر ورسم شخصيته، وعلى هذا الأساس تعامل زهير بن أبي سلمى مع المكان تعاملا خاصاً ومتفرداً، مُضفياً عليه دلالات رمزية عميقة حين «اختار إدخال حروف على هذه الأماكن بالرقمتين، حومانة للتخفيف من أثار الصدمة التي أصابته، وحاول معالجتها عن طريق هذه الحروف للتغلب على حركة دوران الزمن. إن قوة الرؤيا لدى الشاعر محدودة، لذلك أخذ على عاتقه هموم التجربة المحاطة به فكان نضاله هذا بمثابة صراع داخل قائم من أجل الانتصار على مصير الدوران المرتبط بحركية الزمن البطيئة داخل الحيز المكاني المحدود زمنياً وإقليمياً»[1] لقد اعتبر الشاعر المكان محوراً لحياته وهويته، و لم يقتصر تعامله معه على كونه ملاذاً فحسب بل سعى أيضاً إلى استغلاله كأداة للتعبير عن ذاته وإبراز شخصيته.

تصدى الشاعر لتحديات شديدة مع الأماكن، فلم يتقبل التغيرات التي شهدها لأنها كانت تنبئ بالغياب الدائم لسكانها في كل تعبير إذ أن «الطلل من أهم الأمكنة التي شغلت كيان ووجدان الشاعر وألهبت عواطفه، وذلك نتيجة الظروف البيئية من حِلٍ وترحال، والتي ساهمت في عدم استقراره في مكان واحد.

وعليه فإن للطلل أبعادًا ومدلولات تُمكِّن الدارس من التمسك بالعلاقة المقدسة بين الشاعر والمكان» [2] وهذا يوحي لنا بأن الطلل بالنسبة للشاعر تعد مصدر إلهامه، كما أنها مقدسة لا يمكن التخلي عنها لأنها دليله ومبراصه.

يُعبر الشاعر عن حزنه وألمه لخُلو المكان من أي أثر للحياة، ويستخدم استفهامًا إنكاريًا **أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى** للتأكيد على هذا الشعور «وفي شرح هذا الاستفهام يشير الأعلم إلى أنه لإظهار توجع الشاعر، يبدو أنه يتحدث إلى الديار لكنها لم تجبه»[3] أخذ الشاعر

---

[1]– عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط 1، سنة 1993، ص: 52.

[2]– جنات جهيدة، رمزية المكان في الشعر الجاهلي، شعر زهير بن أبي سلمى أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة ماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، الجزائر، سنة 2018، ص: 36.

[3]– عبد العزيز محمد طشطوش، المكان في شعر زهير بن أبي سلمى، حوليات آداب عين الشمس، المجلة 40 ، أكتوبر – ديسمبر، سنة 2012، ص: 140.

في محاورة ما تبقى من أثار، فزاده ألما وتوجعًا بعدما غابت عنه الإجابة، لأنه شعر بالغربة في مكان كان يعرف معالمه سابقًا لكنها تلاشت.

تناول بعض الباحثين دوافع الشاعر في كثرة ذكره للمواضع في الطلل، وربطوها بعمق شعوره بفاعليتها في إثارة مشاعر الحزن والأسى لديه بقول «تعلق زهير بالمكان وأحس بفاعليته عليه لذلك بدأ كثيرا من قصائده بتعداد أماكن سماها بأسماء مختلفة كما مرّ بنا في عدد من المواضع ولو لم يكن إحساسه عميقا بهذه الأماكن ما استطاع أن يجمع كثيرا منها في مجموعة قليلة من الأبيات»[1] ففي كل موضع من المواضع المذكورة في الطلل يرى الشاعر شاهدا على الماضي الضائع ورمزا لزوال الديار وتقلبات الزمن.

يصف الشاعر بيت مكان الحبيبة بالدمنة، وهي أثار منزل قديم تدل على مكان مهجور ومعزول مما يوحي بوحشة المكان وعزلته فـــ «الدقة الشعرية تشكل وصفا مفصلا للمكان الذي يجسد فيه المرأة الحبيبة وعلاقتها بالذات الشاعرة ، و لم يكن المكان بمعزلٍ عن الزمان، إذ ارتبط معه ارتباطًا مباشرًا من خلال الصورة البلاغية المماثلة في صدر البيت الأول **أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةَ لَمْ تَكَلَّمِ** فارتباط الزمان مع المكان لم يكن اعتباطيًا بل كان مقصودا لأن فيه سلبًا لحرية الإنسان»[2] فالشاعر أسير ذكريات الماضي مع حبيبته في هذه الدمنة لا يستطيع أن يتحرر منها.

يظهر لنا من خلال أبيات المقدمة الطللية أن الشاعر زهير مُتعلق بالمكان ويتفاعل معه بكل أحاسيسه ومشاعره، وهذا «ما يوحي بانتمائه وتمسكه بمقومات الحياة لأن المكان الذي نُحبه يرفض أن يبقى مغلقاً بشكل دائم، أنه يتوزع ويبدو وكأنه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة ويتحرك نحو أزمنة أخرى، وعلى مختلف مستوى الحلم

---

[1]– عبد القادر رباعي، الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشمتمري، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط3، سنة 1980، ص: 9 – 11.

[2]– ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى إمرئ القيس، دار الأداب ، بيروت،لبنان ط2،1992،ص: 185.

والذاكرة»[1] هذا الانتماء يعكس شعور الشاعر بأن المكان جزء لا يتجزأ من هويته، وهو حبل الوصال الذي لا ينقطع.

عندما يتحدث زهير بن أبي سلمى عن الديار التي رحلت عنها الأحبة، نلمس من خلال كلماته إحساسا وشعوراً بالفقدان، فهي أماكن لها دلالتها في نفسيته ووجدانه فإذا «تكلمنا عن المكان والحبيبة، فإن الشاعر تعود به الذكريات إلى مكان وزمان الوصال. إذ كان زهير في وصف الأطلال حريصاً على ذكر الجزئيات، لذلك امتلأ شعره بأسماء الأمكنة كالمتثلم، وحومانة، الدُرّاج والرقمتين»[2] ولعلّ هذا التعلق بالمكان هو ما يميز شعره عن غيره، فلم يكن مجرد وصف للديار، بل كان استحضاراً للحياة التي كانت تربط بين أرجائها واستعادة للذكريات الجميلة.

تجسّد الأطلال التغيير الحاصل في المكان وفي حياة الشاعر، إذ نجد أن هذه اللّوحة الطللية لزهير بن أبي سلمى ما هي إلا «استنطاق للمكان بإيقاع حركي وبصري وتأمّلي باستنكار للغياب وضياع الشاعر النفسي لفقدانه حياة المكان فالأطلال هي رمز لموت المكان وفقدان الأهل والأحبة والحقيقة ما هي إلا شعر في الحنين إلى الوطن والديار مختلط بالحب والعواطف التي تشهدها هذه الأطلال»[3] لذلك قد نجح الشاعر في تحويلها من مجرد حجارة صامتة إلى رموز تجسّد مشاعر الحزن وتخلق له جوّاً عاتماً تخيم عليه ظلمة الأسى والتأسي، كما تجسّد كذلك عمق ارتباطه بالمكان والأحبة.

يسود الفضاء الطللي سُكونٌ حزينٌ يلفه غلافٌ من اليأس، بعد أن خيمَ عليه الفناء ورحل عنه سكانه، و لم يبق من ذلك المكان سوى أثارٌ جامدةٌ صامتةٌ تروي حكايات

---

[1]- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، د ط، سنة 2000، ص:72.

[2]- غازي طليمات عرفان الاشقر، الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه: ط1، دار الإرشاد بحمص، دمشق، 1999، ص: 296.

[3]- فريد جحا، الحنين إلى الوطن في شعر المهجر، المطبعة العربية، حلب، سوريا، ط 1، سنة 1961، ص: 08.

الماضي وذكريات للشاعر تسبح في أرجائه، تزيد من حزنه وأساه على فقدان كل شيء إذ «ارتبط شعر المعلقات بالأطلال ارتباطًا وثيقاً، فالديار المهجورة والرسوم البالية والأطلال الخالية كلها تبعث في نفس الشاعر إحساساً متباينا ًوذكريات كامنة في الذاكرة، يجدد الحنين إليها مشاهدة أثار ديار الأحبة الذين تركوا بصمتهم الآسرة في النفس الشاعرة ثم غابوا في طوايا الزمن»[1] وهنا يظل الشاعر أسيراً مكبلاً مختبئاً تحت ثنايا أطلال الماضي، يتأمل أثار الديار المهجورة ويسترجع ذكريات طوتها السنين طي الصحف فتفيض مشاعره بالحزن والأسى على ما ولى وفات.

يقف الشاعر زهير بن أبي سلمى على أطلال المكان يناجيه بزفرات ملئها الأسى والتحسّر، فيقول:

أمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدُّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وَدَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثِمِ[2]

في مستهل هذه القصيدة يظل الشاعر واقفًا على أطلال حبيبته باكيًا ذكراها، يخاطب دمنة ذلك الطلل مذهولًا من قوة الزمن الجارفة التي قلبت ذلك الربع من واحة عامرة بالحياة إلى صحراء جدباء خالية من كل أثر وعليه «فالمكان هو منطلق الشاعر ومنتهاه في تشكيل نصه الشعري المكاني فالعلاقة بين الشاعر والمكان علاقة عميقة الجذور متشعبة الأبعاد، ومن خلالها قد يَصُبُ الشاعر على مكان ما طابعًا خاصًا فيحوله من مسكن خرب إلى طلل منير، ومن حجر أصم إلى شاهد على لحظات مجد أو

[1]- احسان محمود سليمان، المكان في المقدمات الطللية في شعر المعلقات (دراسة نقدية تحليلية)، مجلة البحث العلمي في الآداب، يناير، كلية التربية والآداب جامعة تبوك، سنة 2020، ص: 209.

[2]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق، ص: 64.

وجد»[1] وهذا ما يبين أن المكان ظل مصاحبًا ومرافقًا للشاعر ومسرحًا لأحداثه ومرآة له يبوح لها بأفكاره ومشاعره ويجد فيه ملاذًا من صخب الحياة وضغوطها.

بدأ زهير معلقته بذكر الديار، وهو يرصد لنا ما أصابها بعد أن غادرها أهلها فـ «تحولت إلى أطلال مقفرة تغمرها الرمال وتسرح فيها أسراب الحيوانات الوحشية، مما يستدعي صورة المحبوبة في خيال الشاعر ثم تجده يخاطب الربع ويحيي المترل ويدعو له بالسلامة من الدروس والتغير، ويتمنى أن يلقى صباحًا مشرقًا»[2]، «ويحرص كذلك عند وقفته على ذكر أسماء الأماكن التي اعتادت الحبيبة الترول بها في مواضع مختلفة»[3] فسرح بالخيال واستحضر الأماكن التي رَسمت في مخيلته شعورًا فياضًا وألبسته السعادة والفرح.

تظل الأطلال رمزاً للذكريات وعمقاً للخيالات وسرحاً عميقاً لما عاشه الشاعر مع حبيبته في ذلك المكان، فقد توفرت أبيات مقدمته الطللية على «ملامح أسطورية رسمت المكان فلا يذكر الطلل إلا والمرأة (المحبوبة) قرينه، فهي من الأسس المهمة في هذا المكان فرحيلها يحيله إلى خراب مقفر وبحلولها يبتهج فأي قدرة تمتاز بها المحبوبة، فقداستها تفيض على مكان تواجدها[4] «ربط الشاعر المرأة بالطلل لم يأت عشوائياً، وإنما جمع بينهما ليرمز إلى الحياة والموت فالمرأة الشمس سيدة الطلل وآلهة الجاهليين وربتهم»[5]، نستطيع القول بأن المرأة والطبيعة هما وجهان لعملة واحدة، وكل منهما يكمل الآخر فمثلما تضفي المرأة الحياة على الطلل، فإن الطلل يضفي الواقعية على المرأة.

---

[1]- أحمد درويش، في نقد الشعر الكلمة والمجهر، دار الشروق، مصر، القاهرة، ط 1، سنة 1996، ص: 84.

[2]- البدري فؤاد عبد الغني، المقدمة الطللية في معلقة زهير بن أبي سلمى، دراسة بلاغية نقدية، ص: 2284.

[3]- محمد زغلول، مدخل إلى الشعر الجاهلي (دراسة في البيئة والشعر)، ص: 185.

[4]- الشورى مصطفى عبد الشافي، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، الشركة المصرية للنشر، مصر، ط 1، سنة 1996،ص:93.

[5]- عبد الرحمن نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، عمان ، الأردن ، د ط، سنة 1976م، ص: 126.

تظهر وقفات الشاعر أمام الطلل وقفات وحدة وغرق في تفكراته وعواطفه، فتجيش الأفكار والأحاسيس، إذ يقول في هذا الصدد هاشم ياغي: «إن الوقفة النفسية العميقة التي يقفها زهير في مفترق مفارق من الزمان والمكان، زمان بأحداثه وخاصة بين الإنسان والإنسان، لم يطمس كل معالم المكان وإن حال بين هذا المكان والحديث عما حل به وبأهله، ومن هنا كان زهير في دقة لافتة حين قال، إن المكان لم يروِ ما حل بأهله أي "لم يتكلم"، وإن هذا المكان ما يزال قادرًا على أن يستقبل حركة الكائنات الحية الجميلة ولذلك أوحى بقدرة هذا المكان على أن يستجيب للآمال»[1].

نجح الشاعر في تصوير ووصف حالة الحزن والأسى التي يعيشها من خلال وصفه للطلل الخالي من أهله، ومن خلال مخاطبته لهذا المكان، أحيا في نفسه الأمل بالمستقبل من خلال إيمانه بأن هذا المكان سيظل قادرًا على استقبال الحياة والجمال.

إن الحضور أمام هذه الديار يعتبر ترميماً لها وتجاوزاً لمرحلة الانهيار عند الوقوف، تنبعث الذكريات من الماضي بقوة وتحتل مساحة وحيزا أوسعا في خيال الشاعر إذ «يقف الشاعر الجاهلي دائماً على أطلال داره، وربما هي وقفة لازمة لكل إنسان فإذا كانت الطللية حقيقة من حقائقها النفسية والإنسانية، إذن من منا لا يقف على أطلاله النفسية ومن منا لا يستصرخ دياره النفسية المهجورة، وتلك التي تكون مسكونة بذكريات الماضي، أوليس ماضينا شريكنا في كل ما نقول ونفكر فيه»[2] اعتباراً من هذا، ماذا سيحدث للمكان في المستقبل هل سيظل خراباً إلى الأبد ؟ أم ستحيي فيه الحياة من جديد؟

---

[1]- محمد زكي عشماوي، قضايا النقد الأدبي والبلاغة، د ت، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، د ط، 1967، ص:147.

[2]- إبراهيم محمود، صدع النص وارتحالات المعنى، حقيقة النص بين التواصل والتمايز.مركز الانتماء الحضاري، د ب، ط1، 2000، ص:41.

توحي مقدمة زهير الطللية بقدرتها الفريدة على رسم صورة حية للديار بعد رحيل أهلها، حيث تتحول من مكان خالٍ من مظاهر الحياة إلى لوحة نابضة بالحركة والحيوية، وذلك عندما يأتي بمشهد الحيوانات التي تعيد زهرة الحياة وجمالها لهذا المكان، وهذا ما أشار إليه في قوله:

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثِمِ[1]

الشاعر منح الطلل الحياة بالحيوانات وعيشها في هذه الديار، بعد فناء الإنسان «إذ تعمر الأطلال بعد مغادرة المجتمع البشري لها بأسراب الحيوان المتشكل من تآلف الأبقار الوحشية والظباء، وقد إلتقت حولها صغارها ينهضن بالاطمئنان»[2] إذ يقول يوسف خليف: «وسط هذا الفراغ الداخلي في نفسه والخارجي في الأطلال تتراءى قطعان من الظباء والبقر الوحشي آمنة في مسارحها وكأنها البقية الباقية من مظاهر الحياة في هذه الأطلال الصامتة والمتوحشة»[3] وهذا ما يعكس امتداد الحياة مرة أخرى للديار المهجورة بوجود الحيوانات، فمن خلال هذه الصورة يُظهر الشاعر أن الطبيعة قادرة على إعادة وتجديد نفسها وأنها ستظل حيّةً حتى ولو غاب عنها الإنسان.

يسرح الشاعر بخياله لاستذكار منزل **أُمِّ أَوْفَى** بعد وقوفه على الأطلال بعد عشرين حجة، حيث وقف مذهولاً متحيراً أمام المكان الذي تحول إلى طلل وردم ومجرد آثار، فلم يستطيع معرفته إلا بعد جهد جهيد، وتجلى ذلك في قوله:

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدِّارَ بَعْدَ التَوَهُّمِ[4]

---

[1]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق، ص: 64.

[2]- أحمد أمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط، 2005، ص: 77.

[3]- يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص: 127.

[4]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق، ص: 64.

يحدد الشاعر في هذا البيت الزمان الذي فرض عليه مقابلة المكان، إذ «يدل طول المدة الزمنية على طول غربة الشاعر عن مكانه والعودة إليه أثارت فيه الشعور بالخوف لعدم معرفة الديار إلا بعد جهد جهيد، لأجل تذكر التفاصيل الصغيرة فالماضي يسكن الحاضر لتبلور رؤية المستقبل»[1] إن الانقطاع والقطيعة عن الديار أثرت تأثيرًا بالغًا فأوهمت الشاعر وصعبت عليه التذكر. والدليل على ذلك أن الوقوف على الأطلال من بعد عشرين حِجَّةٍ هو أن «أمر القطيعة قد طالت بينه وبين ديار الحبيبة، وهذا ما جعل الشاعر يجهد عينه وذاكرته علّه يعثر على أطلال ورسوم تدل على بيت حبيبته وقد عبّر عن ذلك **فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ**»[2] وبعد تيهانه وغياب الوعي استجمع قواه في استرجاع ذكرياته وبدأت تتضّح له معالم المكان رويداً رويداً.

من خلال ركام الزمن، تنبثق ذاكرة المكان فيرسم لنا الشاعر في هذا البيت لوحة فنية تجسد رؤية المكان لديه بعد غياب طويل فمن خلال بقايا الأثافي المنفحصة ونؤي الماء الذي يشبه جذع الحوض العتيق، يعيد الشاعر بناء صورة المكان في مخيلته قطعة تلو الأخرى، فيُشعر قائلا:

أَثَافِيَّ سُفْعا فِي مَعَرَّسِ مِرْجَلٍ وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ[3]

يرتقي الشاعر في هذا البيت بوصف المكان، إذ يرى أن «الأثافي والنؤي هي التي حددت المكان وأوضحت معالمه الأولى. فلولاها ما أزاحت تلك الضبابية وذلك الغموض الذي اكتنفه جراء التحولات التي طرأت عليه»[4] ولذلك نلحظ أن إثبات البقاء ليس للأماكن نفسها وإنما للآثار ورسومها، فالمباني قد تنهار والأشياء قد تتلف، لكن الآثار والرسوم تبقى شاهدة على وجود ما كان.

---

[1]- يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، وزارة الثقافة،ص:120- 121.

[2]- محمد حجازي، الأطلال في الشعر العربي، ص: 201.

[3]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق، ص: 64.

[4]- عبد العظيم حقي، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، سنة 1987، ص:83.

بعد رحلة طويلة عبر دروب الزمن، ها هو الشاعر أخيرًا يرسو على أعتاب ديارِه محملاً بمشاعر الحنين والشوق. حيث يجسد في هذا البيت لقاءه بالمكان من خلال تحية دقيقة تلامس جدران الدار وتحيي ذكريات الماضي في سرده:

فَلَمّا عَرَفتُ الدارَ قُلتُ لِرَبعِها أَلا أَنْعم صَباحاً أَيُّها الرَبعُ وَاسلَمِ[1]

وبذلك تصبح التحية تعبيرًا عن مشاعر الشاعر وارتباطه المتجذر بالمكان ويبدو أن «موتيفة تحية المكان أصبحت أمرًا أساسيًا في شعر الشعراء، فالتحية ترتبط بالشيء المقدس العظيم ولقد خصوها بكلمة (انعم) التي كانت متبادلة بين الجاهليين وخاطبوا بها ملوكهم وآلهتهم، وما زالت تحية المكان موجودة إلى يومنا هذا وإن اختلفت الصيغة، فللمسجد تحية إسلامية خاصة لقداسته. واقترنت التحية بالدار تبجيلا وتقديرًا للطلل، وفي هذا محاكاة ذاتية لما ينعكس على صفحة روح الشاعر وما يرسم في عقله وقلبه من خواطر وأحاسيس»[2] وهذا ما يجعل من هذه التحية رمزًا صادقًا وجسرًا يربط المشاعر والأحاسيس ربطًا لا ينقطع وثاقه مع الديار.

إن النتيجة الحتمية وزبدة القول التي وصلنا إليها بالنسبة للمكان وأهميته في شعر زهير بن أبي سلمى هو أنه عمودًا فقريا يرتكز عليه بناء القصيدة، كما أنه يعد العنصر البارز الذي يضفي على القصيدة رونقا خاصا يبعث في أذن السامع أنغاماً، ويمارس تأثيرا على نفسية الشاعر في حد ذاته ويحرك أحزانه، فغياب الحبيبة وفراق الديار يجعلان من المكان مسرحاً حيث يتحول إلى شاهد على ذكريات جميلة، لقد وظفه بطرق مختلفة فتارة يجعله خلفية لأحداث مؤثرة وتارة أخرى يحوله إلى رمز للتعبير عن مشاعره كما أنه يبدع في رسم الصورة الحية الناطقة له بدقة كان هذا المكان عند زهير بن أبي سلمى، فهل يختلف التعامل مع المكان عند الشاعر امرئ القيس؟

---

[1]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق، ص: 64.

[2]- ربابعة موسى، تشكيل الخطاب الشعري، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية إربد، سنة 2000، ص: 18.

2- تجليات فلسفة المكان عند امرئ القيس:

إن من أشهر وأروع المقدمات نجد المقدمة الطللية للشاعر امرئ القيس، إذ تعد واحدة من مسارح الشعر العربي. حيث يبدع الشاعر في رسم لوحة ناطقة لأثار الديار التي غادرها الأحبة، وكيف تحولت من مكان عامر بالحياة إلى بقعة خالية حتى من الروح في قوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ
بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصَاتِهَا ... وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأَنِّيْ غَدَاة البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وُقُوْفًا بِهَا صَحْبِيْ عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ
وَإِنَّ شِفَائِيْ عَبْرَةٌ مَهَرَاقَةٌ ... فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ[1]

يصارع الشاعر صراعا مريرا، مع كينونة الزمن فيحاول فرض نفسه وبسط نفوذه للإنغماس داخل قوقعة هذا المكان، حيث يمثل هذا الصراع السمة البارزة في هذا الرسم الطللي، لقد تمثل له الزمن عدوا يهدد وجوده ووجود أحبته، إذ «يعتبر أن الحديث عن الطلل بقاء في دائرة الوجود، ونفي للموت الذي أرخى سدوله على يومياته، وحرك فيه أناة للانعتاق من عبوديته فولى وجهه عن الفراق المرسوم في وشم الطلل، وانتقل يبحث عن طرق تعيد له الأهل لذلك لجأ الشاعر إلى تحديد أطر المكان بتوظيفه لمجموعة منها: سقط اللوى بين الدخول فحومل، فتوضح فالمقراة»[2] إنه يحاول مصارعة الموت ونفي فكرة الموت نفياً من خلال التمسك بالمكان وتذكر الأحبة والبحث عن طرق العودة إلى الماضي.

---

[1]- امرؤ القيس الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ص: 90. (مصدر سابق)

[2]- إحسان محمد سليمان، المكان في المقدمة الطللية في شعر المعلقات (دراسة نقدية تحليلية)، ص: 208. (مرجع سابق)

اِعتلت الضبابية والتيهان الجغرافي فكر الشاعر، فأصبح لا يميز بين الواقعية والخيال فحاول تحديد أماكن الديار من خلال ذكر بعض الملامح والسمات التي تحيط بها، فهي التي توجهه وتحاكي له المعالم إذ أنّ «الأماكن الواقعية "الدخول، حومل، توضح، المقراة" هي جهات أربعة معلومة وقف عليها الشراح وحددوها. ومن بين هذه الأماكن يوجد مكان دارس يقف عنده الشاعر "بسقط اللوى"، أي عند المنحدر حيث يسترق الرمل، وهذا المكان لا يحدد ولا يعرف له وجهة معينة إلا من خلال ما يحيط به من أماكن واقعية»[1] وهنا يربط الشاعر تخيلاته بالواقعية في رسم حدود الأماكن فيُلَمح بعض الملامح والسمات لكي يصل الموقع ذاته، مسترجعًا ذكرياته مع الأحبة في هذه الديار.

يقدم الشاعر تجربة غنية تمزج بين الماضي والحاضر، فيصبح المكان شاهداً على الماضي الحافل بالذكريات ليقفز بمشاعره في الحاضر وهذا ما يتيح لنا القول «إن ما نُقش في الذاكرة يضاهي ما حدد في التاريخ والزمن المعيش مثل المكان الواقعي لذلك حرّك الواقعي (المكان) ما ترسب في الذاكرة، فكانت الذكرى عنصراً أساسياً يدعو للوقوف، وفي ذلك حديث عن عملية مزاوجة بين الوقوف والتذكر، ويعبر المكان عن هذا الازدواج ويحققه في النص، فتبرز حينها صورة المكان مادية قِوامها دمن وبعر وأثافٍ... فالمكان طلل، والذات شاعر، حمل ذكرى المكان في مغامرة يستحضرها عند حلوله بالفضاء»[2] يجسد لنا هذا أن للمكان قدرة على إيقاظ ما ترسب في الذاكرة من مشاعر واستحضار الذكريات، مما يخلق رابطًا وثيقًا بين الماضي والحاضر.

إن تعدد الأماكن وكثرتها يجعل الإنسان يحط برحاله وتجواله، مستحضراً ذاكرته، فيخرج المكبوت عند كل موضع وكل موضع له خاصيته ودلالته أما في مشهد الطلل، فإن المكان علامة فارقة في مشاعر الشاعر وتذكره لحبيبته، إذ يقول:

---

[1]- عماري الجداري، المكان في الشعر العربي القديم من خلال المعلقات والمفضليات البناء والدلالة والتلقي، جامعة سوسة تونس المجلد 7، العدد 3، سنة 2018، ص:181.

[2]- عماري الجداري، المكان في الشعر العربي القديم من خلال المعلقات والمفضليات البناء والدلالة والتلقي، ص: 181.

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْـــرَى حَبِيْـــبٍ وَمَنْـــزِلِ بِسِقْطِ اللِّـــوَى بَـــيْنَ الـــدَّخُولِ فَحَوْمَـــلِ
فَتُوْضِـــحَ فَـــالمِقْرَاةِ لم يَعْـــفُ رَسْـــمُهَا لِمَا نَسَـــجَتْهَا مِـــنْ جَنُـــوبٍ وَشَـــمْأَلِ[1]

في هذين البيتين، مجموعة من الأماكن مشاعر الشاعر، وتهزّ فيه الذاكرة هزا فسقط اللوى وحومل والمقراة، كلها أمكنة «ترتبط بحالة تذكر يعيشها الشاعر والمكان هنا أصبح معزولًا عن شرطه الإنساني، ذلك أنه لم يُعد سوى بقايا أثار لم تندرس بعد بشكل كلي، ولكن أهميتها تأتي بما تثيره لدى الشاعر، ثم لدى المتلقي من ذكرى إنسانية ينقلها إلينا بالتدريج، لتصبح تجربته الخاصة في المكان وتجربة عامة لنا نحن القراء»[2] يُفرط الشاعر في بعثرة أوراقه بين أزقة أمكنة، لعله يعود من جديد فيلملم ما بعثره الزمن فيحاكي به تلك المشاعر التي تحرك ذاته.

يتعلق البعد النفسي للمكان بالدلالات والارتباطات التي ينشئها هذا الأخير في الذات الإنسانية، يتجاوز هذا البعد الوصفي ليشمل مشاعر وأحاسيس وذكريات ومعتقدات ترتبط بالمكان لدى الفرد أو الجماعة، وهذا ما تمثل في قول الشاعر:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْـــرَى حَبِيْـــبٍ وَمَنْـــزِلِ بِسِقْطِ اللِّـــوَى بَـــيْنَ الـــدَّخُولِ فَحَوْمَـــلِ
فَتُوْضِـــحَ فَـــالمِقْرَاةِ لم يَعْـــفُ رَسْـــمُهَا لِمَـــا نَسَـــجَتْهَا مِـــنْ جَنُـــوبٍ وَشَـــمْأَلِ
تـــرى بَعَـــرَ الأرْآمِ في عَرَصَـــاتِهَا وَقِيْعَانِهَـــا كَأَنَّـــهُ حَـــبُّ فُلْفُـــلِ
كَـــأَنِّيْ غَـــدَاةَ البَـــيْنِ يَـــوْمَ تَحَمَّلُـــوا لَدَى سَـــمُرَاتِ الحَـــيِّ نَـــاقِفُ حَنْظَـــلِ[3]

تشير هذه الأبيات إلى أن الشاعر «يعيش حالة تركت في نفسيته حوادث كان لها الأثر الواضح على أحاسيسه ومشاعره، مما جعله يعيش الذكريات حتى يجعل منها حقيقة يسترجع بها حالته الوجدانية الغابرة في كل مكان مرّ به، فعوالمه وأماكنه متنوعة غنية

---

[1]– امرؤ القيس، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 90.

[2]– سلمى باحشوان، المكان في شعر طاهر الزمخشري ، رسالة ماجستير ، الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، سنة 2009، ص: 33.

[3]– امرؤ القيس: الديوان: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 90.

بالمشاهد والأحاسيس فعلاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي معًا»[1] المكان مولد القصيدة عند الشاعر ومهبط للذكريات، وجمع بين الواقع والخيال وتزاوج بين الماضي والحاضر.

يتعمق الشاعر في ذكر تفاصيل المكان المتحول بالدقة، فيذكر كل شاردة وواردة وبأدق التفاصيل، وهذا يرجع لسيطرة المشاعر و«يستوقف نفسه وغيره ليبكي على هذه المنازل الموحشة التي ظلت بقاياها شاهدة عليه بسبب رياح الجنوب ويذكر بعد الآرام للدلالة على أن الظباء كانت تروح وتجيء في ذلك المكان الذي كان عنصرا عامرا بأهله، وأصبح مرتعا للظباء، ثم يعود الشاعر مرة أخرى ليعبر عن أثر يوم الرحيل في نفسه، فقد ظل تائها حين اشتدت أزمته النفسية، فبعد البكاء تأتي مرحلة تجميع الذكريات»[2] فهذا مشهد يَحُزُّ في نفسية الشاعر، فيتحول المكان المقدس بالنسبة له إلى مرتع للحيوانات، وهذا ما لا يتقبله عقلا ولا منطقا فيثير لديه الحزن والأسى.

يعتبر المكان بالنسبة للشاعر بمثابة ينبوع إلهام غزير يغذي مشاعره ويلهمه لكتابة ملحمة حنين عميق تدور أحداثها حول خمسة أماكن مختلفة، وهي"سقط اللوى الدخول، حومل، توضح المقراة" ذلك أن «الرسم الدارس الذي يعنيه والربع البالي الذي كان يضني قلبه ويبريه، إنما هو سقط اللوى الواقع بين هذه المواضع الأربعة، فكأنه واسطة عقدها وجوهر قلادتها، فالحبيب الذي من أجله استبكى أصحابه بعد أن بكاه كان ينوي بهذا الربع الدارس الذي لطالما تضنى فيه لحظات مفعمة بالسعادة وأوقاتا عامرة بالحب وأزمانا حافلة بالملذات»[3] معانقة قوية وحضن دافئ بين الشاعر وشراكة

---

[1]– فيصل فلقت، عالم المكان في المعلقات السبع دراسة دلالية، ص: 25.

[2]– سعيد محمد الفيومي، فلسفة المكان في المقدمة الطلبة في الشعر الجاهلي، مجلة الجامعة الاسلامية، المجلد15، العدد02، جامعة القدس المفتوحة، غزة، فلسطين،2007،ص: 254.

[3]– عبد المالك مرتاض، السبع معلقات مقاربة سيميائية أنتروبولوجية لنصوصها، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، سنة 1998م، ص:49.

واضحة المعالم وقدسية بينه وبين أماكنٍ أوجعت ذاكرته وأضنت قلبه، وهذا ما يدل على أن للمكان خصوصية في استدراج الذكريات.

يحاول الشاعر زرع الروح في المكان بعد أن خيم عليه الصمت باستخدام الأسلوب الحواري، وكأنه يريد أن يُنطق هذا السكن الصامت «بدأ حواره للصَحب عبر أسلوب التجريد "قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل"، احتجاجاً منه على هذا الصمت المطبق الذي يخيم على المكان، وكأنه في ذلك يحاول ملء الفضاء المكاني عبر أسلوب الحوار بالصوت الإنساني الذي يجاوبه ويتعاطف مع مأساته وقد نجح الشاعر فعلاً في تحقيق هذا المبتغى عندما خرج الصحب عن صمتهم تاليا يقولون "لا تهلك أسى و تجمل"»[1] إنه التماس للصحب لاستنطاق هذا الجماد فيغوص فيه محملا ومثقلاً ليخرج منه الدفين من الذكريات الجميلة.

يظهر مظهراً آخر ليدلي بدلوه في القصيدة الشعرية ويعطي لها جمالية وإبداعاً، حيث يتجلى النبات في أماكن متعددة فالخُضْرَةُ حياة لها دلالتها ومقاصدها، من خلال قوله:

تَـــرَى بَعَـــرَ الأرْآمِ في عَرَصَـــاتِهَا وَقِيْعَانِهَـــا كَأَنَّـــهُ حَـــبُّ فُلْفُـــلِ

كَـــأَنِّيْ غَـــدَاةَ البَـــيْنِ يَـــوْمَ تَحَمَّلُـــوا لَدَى سَـــمُرَاتِ الحَـــيِّ نَـــاقِفُ حَنْظَـــلِ[2]

فكأنما الشاعر يريد أن يحيي المكان ويضفي عليه روحًا ونفسًا، ويحوله من مجرد فضاء جامد إلى مسرحٍ نابض بالحياة والشعور وهذا ما يدل على أن «كل شيء في تصور الشاعر زائل وإلى الفناء صائر، لكن الذي لا يفنى ولا يزول ولا يبلى، حسب رؤية المشاعر الجاهلي في هذه اللوحة، هو المكان وحده الخالد الباقي، قد تتغير مظاهره، لكنه لا يتبدد ولذلك نلقى المكان في التجربة الشعرية الجاهلية يملك إمكانية الإنجاب ومواصلة

---

[1]- يوسف محمود عليمات، تمثيلات النقد النسقي في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، د ب، ط1، سنة 2015، ص: 38.

[2]- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 90.

الحياة من خلال الحيوانات التي تأهله بعد البشر. فالمكان باقٍ بقاءً أزلياً، لكنه يتخذ طابع التجدد والاستمرار، ويكسب هويته بمن يسكنه وبأهله»[1] يتضح العنصر النباتي في المكان من خلال "حب فلفل"و"سمرات حنظل"، فدلالة الخُضْرَةِ منبع آخر للحياة التي يريد الشاعر أن يراها في هذه الأمكنة، فتعطيه الأمل بالحياة ويطمئن لها.

يُمضي المكان ليصبح رمزًا للتغير والفناء، فكل شيء فيه يتغير والحياة لا تدوم، وهذا ما يمثل علاقة الشاعر السلبية به، والتي تمثلت في الأرض المقفرة في كثير من الأحيان. «إذ تغير كثير مما قد كان موجودًا من جماليات المكان، وبقيت جماليات الذكرى التي قد تعوض عما فقده الشاعر في حاضر الطلل ورؤيته الجديدة له. وخير مثال ما نجده في معلقة امرئ القيس من وصف مكاني غابت عنه جماليات المكان والذكرى معًا، فلم يبق إلا الوحشة القاحلة والأرض المقفرة والحضارة المتهدمة فلا أثار للإنسان، بل إنه لم يبق من أثار الحيوان لدى سكونه هذه الأرض سوى أبعار متناثرة جافة هنا وهناك»[2] ولكن تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من رمزية المكان للتغيير والفناء، إلا أن الشاعر لم يفقد الأمل، فهو يتشبث بعودة الحياة.

يتشبث الشاعر بمكان ذلك الطلل البائد الذي بات رمزًا للفناء، بدافع رغبته القوية في إثبات وجوده ونفي فناءه، شأنه أن يثبت مرة أخرى استمرار الحياة في هذا المكان من خلال «توظيفه صورًا بلاغية التي يمثلها قوله "وقيعاها كأنه حب فلفل"، ما يستدعي بعث الطمأنينة في النفس من جديد، إن الإيجابية التي جعلت من المرأة الحبيبة متضخمة هي رغبة الذات في أن يكون هذا الحضور طاغيًا فاعلاً على مستوى القول الشعري، والذات أسقطت صفة الحياة والديمومة على المكان»[3]مرة أخرى يتصارع الشاعر مع

---

[1]- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 25.

[2]- أحمد عبد المنعم حالو، تجليات المكان في شعر المعلقات (دراسة تحليلية تأويلية)، مجلة: سر من رأي: المجلد 13، العدد 50، جامعة سمراء كلية التربية، سنة 2017 م، ص: 241.

[3]- عبد المالك مرتاض، السبع معلقات مقاربة سيميائية أنتروبولوجية لنصوصها، ص: 69.

المكان صراع حياة ووجود، فالمكان يفرض قدسيته وتجليه، فيحضر قويًا صارخًا مؤثرا على جنبات الشاعر ليستسلم له ولوقعه عليه.

يريد الشاعر أن يضفي على المكان صفة الحياة والاستمرارية والديمومة، وأن يجعله رمزًا للبقاء ولتحقيق ذلك يلجأ إلى «أن يُعطي الزمان دورًا فاعلًا؛ لذا اتجه للزمان لإشراكه في النص لأنه يشكل بعدًا من أبعاد الظاهرة المكانية، فتعيين الشيء يفترض تحديده على مستويين، الموقع المكاني الذي يشغله الجسم (النقطة المادية) واللحظة الزمنية المحدودة. إن مجرد الحديث عن مكان ما، فإنّ البرهة الزمنية تكون مرافقة لذلك»[1]، فالمكان لا يتأثر بعوامل مادية فقط مثل موقعه الجغرافي، بل أيضًا بعوامل زمنية. إذ لا يمكننا تحديد موقع شيء ما دون تحديد الزمن الذي يشغله.

وليس بعيدًا عن الزمان وأثره في البنية الشعرية عمومًا، وفي البكائية الطللية على الخصوص، نصادف في هذه الجزئية أثر المكان أيضًا على الشعر وعلى المقدمة معًا ولا نعدو الصواب في هذه الخاتمة إذا قلنا إنه إذا خلت المقدمة من المكان خلت من روح الشعر عمومًا، فذاكرة المكان أرسخ وأثرها على الشاعر أبين، وسيتبدى ذلك من خلال مستويات المكان ودلالاته.

ثالثا: مستويات المكان ودلالاته في البكائية الطليلة:

1- البعد الاستعراضي : الأمكنة الاستعراضية:

أ- الأمكنة الاستعراضية عند زهير بن أبي سلمى:

يستخدم الشاعر هذه الأمكنة لوصف واقع ملموس ولاستحضار مشاعر أو ذكريات معينة لديه، بحيث تشكل نافذة على عالمه الداخلي وتكشف عن خلجاته النفسية وأحاسيسه إذ، «يندرج تحت هذا البعد أمكنة التذكر التي تفد على مخيال الشاعر عبر قناة لاقطة لأحداث متسربة في الذاكرة بفعل تأثير لحظة آنية تشد إليها الشاعر بقوة،

[1]- حيدر لازم مطلك، الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، د ط،سنة 2010 م، ص: 200.

فتتداعى صور الأمكنة في نسيج سردي حاضرة حضوراً إضافياً يكمل، ويتم معالم المكان الماثل»[1] ومن نماذج هذا البعد ما ذكره زهير بن أبي سلمى في مطلع معلقته حيث يجسد ديار "أم أوفى" التي تحولت إلى دمنة صماء وكيان صامت لا ينطق، إذ لولا بعض الأماكن الطبوغرافية التي تساعد على تحديدها لما كان ليعرفها.

يصور الشاعر زهير بن أبي سلمى موقع ديار أم أوفى من خلال ربطه ببعض المعالم الطبوغرافية المحيطة بها، فيقول:

أمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدُّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وَدَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا ... مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ التَوَهُّمِ

أَثَافِيَّ سُفْعًا فِي مَعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدارَ قُلْتُ لِرَبعِها ... أَلا أَنْعم صَباحاً أَيُّها الرَبعُ وَاسلَمِ[2]

نلاحظ من خلال هذه الأبيات أن الشاعر يستخدم الأمكنة الجغرافية: حومانة، الدراج والمتثلم، ليس لوصفها بحد ذاتها، بل يستخدمها كمعالم إشارية لمعرفة موقع الرقمتين، وهي ديار الحبيبة فـ «لقد ذكر زهير الأماكن الجغرافية حومانة، الدراج والمتثلم من قبل استذكار دار الحبيبة، وليس لذاتها فهذه الأماكن وغيرها تشكل معالم إشارية لمعرفة المكان المحوري التي يقف لأجلها الشاعر فيمعن فيها البصر والتأمل، تساعد على نقل الشاعر إلى الأجواء التي تزوده بطاقة نفسية هائلة لها قدرة عظيمة في استجلاب أهم الذكريات ومعايشتها بكامل الوجدان، فتتحول الدار إلى فضاء للمحاورة»[3] فمن خلال تذكر هذه الأمكنة يعيد الشاعر إحياء مشاعره القديمة، ويعايش ذكريات الحب

[1]- باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 259.

[2]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق، ص: 64 – 65.

[3]- باديس فوغالي،الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ص: 260.

والحنين وإيحاءه هنا هو أن المكان له قدرة هائلة على استجلاب الذكريات واستحضار المشاعر.

حرص زهير بن أبي سلمى على ذكر التفاصيل الصغيرة من الأمكنة فشعره حافل بالمواضع ودار أم أوفى تحتل موقعا إستراتيجيا يتمثل في الرقمتين، كما جاء في شرح بن زيد الشيباني، «الرقمتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة»[1] ويذكر الشاعر أن هذين المكانين المحددين لديار حبيبته يقعان في موضع مرتفع من الأرض «الحومانة ما غلظ من الأرض والدراج والمتثلم موضعان بالعالية، وإنما جعل الدمنة بالحومانة لأنهم كانوا يتحرون الخباء ونحو ذلك»[2] فمن خلال ربط دار الحبيبة بهذين الموقعين يضفي الشاعر عليها بعدًا عاطفيًا يجعلها أكثر من مجرد مكان للسكن، فهاتان المنطقتان تُمثل معالم جغرافية ثابتة لا تتغير مع مرور الزمن، وبذلك فإن وجود دار الحبيبة بينهما يضفي عليها بعدًا من الديمومة والبقاء.

إن بقايا ديار محبوبة الشاعر تحتل مكانها بالرقمتين، محمية بالدراج والمتثلم. حيث نلاحظ أنه يشبه بقايا دارها بمراجيع الوشم في نواشر المعصم وفي هذا الصدد يقول أحمد وهب رومية: «إن الوشم رمز لإرادة الحياة وأحلام الجماعة. كما يعد الظاهرة تعويده ضد الفناء الذي يهدد الأطلال الصامتة والموحشة»[3] وهذا ما يدل على أن الدار تتجدد حسب رؤية الشاعر كما يتجدد الوشم في عروق المعصم. كل هذا يجعل من ديار المحبوبة لوحة نابضة بالحياة تتفاعل مع كل إحساس. هذا التشبيه له دلالة رمزية عميقة تتعلق بحياة هذه الدار وخلودها في ذاكرة الشاعر.

---

[1]- أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى. د.ط - دار الكتب المصرية، مصر القاهرة، سنة 1994، ص:5.

[2]- أبو الحجاج يوسف بن سلمان بن عيسى المعروف بالأعلم النحوي الشمنتري، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى المزني، صححه محمد بدر الدين ابي فراس النعساني الحلبي، المطبعة الحميدية المصرية، د ط، 1906، ص:3.

[3]- أحمد وهب رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 207، ص: 152.

يمكن تفسير تشبيه الشاعر لدار الحبيبة بالوشم على المعصم بأنه كان يريد من خلاله ترميم المكان معنوياً، كما يشير إلى أن هذه الدار ليست مجرد مكان مادي بل هي جزء حي من كيانه وذاكرته، إذ يرى أنور أبو سويلم في تحليله ظاهرة الوشم أن «اليد دون الأعضاء الأخرى تعبر عن بقاء مشكلة الطلل شاخصة مائلة أمام الإنسان الجاهلي، لأن اليد أكثر استعمالاً وأكثر بروزاً ووضوحاً أمام صاحبها وهي التي تسببت في وجود الطلل فلولا إرادة القوم في الرحيل عن الديار لما حدث الطلل»[1] وبالتالي فإن وشم اليد يعبر عن مشكلة بقاء الطلل حاضرة في ذهن الإنسان الجاهلي وعن شعوره بالحزن والحنين إلى الديار التي هجرها، فالوشم ليس مجرد زينة وإنما هو رمز دال على بقاء تلك الديار وصمودها.

نلاحظ من خلال ما سبق أن الشاعر قبل ذكر لنا بيت محبوبته. حدد المعالم التي تحيط بها بدقة، مما إبراز هذا المكان بشدة التدقيق الوصفي إذ «تشحن الأمكنة بالتحديد المفرط التدقيق لتنهض بصور فريدة ومشاهد ذات بناء فني شفاف من حيث العملية الوصفية القائمة على مستويات مختلفة من التحديد وتقديم الحيز الفضائي الأمثل»[2]، «تأتي عملية التدقيق الوصفي بتكرار للأمكنة وتتاليها في حشد لجملة الأماكن العامة أو المواقع التاريخية لتضفي على النص تحديدا فريدا من حيث التدقيق الوصفي»[3]

تشير محبة الشاعر للطلل وتعاطفه معه إلى حنينه العميق إلى الماضي وذكرياته الجميلة في دار الحبيبة، فالطلل هو بقايا الديار وهو شاهد على حياة سابقة غادرتها الحبيبة

---

[1]- أنور أبو سويلم، قراءة في معلقة طرفة بن العبد، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع الآداب، الرياض، سنة 1992، ص: 368.

[2]- القاضي أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: احمد صقر، دار المعارف، مصر طبعة عالم الكتب، 1997، ص: 156.

[3]- عمارة الجداري، جماليات التعبير المكاني في الشعر العربي القديم من خلال المفضليات والمعلقات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، مجلة جبل الدراسات الأدبية العدد 38، مج 5، مركز جيل البحث العلمي، الجزائر، سنة 2018، ص:63.

لذلك فهو يرى في الطلل رمزًا للزمن الماضي ولعزة الدار التي كانت عامرة بالحياة «إن مثل هذا التعاطف مع الديار يظهر في كون الشاعر تحدث إليها، ولكنها لم ترد إليه جواباً إنه التعاطف الشديد الذي يدفع الشاعر ليس إلى مخاطبة الطلل فحسب بل انتظار الجواب منه وهذا ما يذكرنا برأي سابق لأحد الدارسين أشار فيه إلى أن كثرة ذكر الأماكن مرده الحب والألفة»[1]، مما لا شك فيه أن هذه الديار قد احتضنت الشاعر في طفولته وشبابه وشهدت على لحظات سعادته وحزنه فإنه يشعر بمسؤولية اتجاهها للحفاظ عليها وإحياء ذكراها.

يصور الشاعر الديار باستعمال لفظة أثافي فهي نقطة اِرتكاز حددت من خلالها معالم الدار ورمز دال على حضورها واقعيًا، إذ «يختار من عناصر المشهد ما يدل على انطفاء جذوة الحياة وذبولها بعد الرحيل مستغلاً عنصر اللون بإيحاءاته المختلفة استغلالًا فنيًا واضحًا فهاهي الأثافي السفع (حجارة القدر السوداء) تحتل واجهة الصورة»[2] كما جاء في شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني، «أثافي الحجارة التي تجعل تحت القدر. الواحدة أثفية، والسفع السود... والمعرس هنا الموضع الذي يكون فيه المرجل، وكل موضع يقام فيه يقال له معرس والمرجل كل قدر يطبخ فيها من حجارة أو حديد، والنؤي حاجز يجعل دون الخباء يمنع من السيل من تراب وغيره»[3] تعد هذه البقايا بمثابة شواهد حية على وجود هذه الدار، وفي الوقت نفسه رمزا للحياة المنطفئة داخلها حيث تساهم في خلق صورة حزينة تجسد خلو دار الحبيبة من الحياة بعد رحيلها، فالأثافي تشير إلى آثار النار التي ماتت، مما يدل على موت جذوة الحياة.

---

[1]- عبد القادر رباعي، الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، الرياض، دار العلوم، ط1، سنة 1984، ص: 138.

[2]- محمد صالح الشنطي، الموجز في الأدب العربي عبر العصور (د. ط)، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، د ت، ص: 85- 86.

[3]- أبو عمرو الشيباني، شرح المعلقات التسع، تحقيق وشرح عبد المجيد همّوا، ط 1، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة 2001، ص: 185.

2- البُعد النفسي للمكان عند امرئ القيس:

شغف العرب في الجاهلية بالحل والترحال والانتقال، كان همهم البحث عن الكلأ للماشية فعانوا ظروف الطبيعة القاسية: «لقد كانت حياة القبائل تقوم على الحركة الدائبة والتنقل المستمر في الأغوار والأنجاد وفي السهول وفوق قمم الجبال، وفي أجواف الصحاري، وعلى سواحل البحار، وفي الطبيعة الصحراوية... فليس غريباً أن يكون المكان (الطلل) الذي غودر إلى آخر حضور بارز في قصائدهم بما له من صلة بالشاعر أو العلاقة بالمرأة التي يكن لها الشاعر أسمى المشاعر وأعذبها. فالأطلال تمثل الماضي والذكريات، المرأة وملاعب الصبا والشباب. فلا بد أن تحظى باهتمام كبير من لدن الشعراء»[1]، فقد ظل المكان يؤثر تأثيرًا هامًا فارتبط بمشاعر الشاعر ونفسيته، تارة يحركها إلى الحنين وتارة أخرى إلى الحزن والأسى، إنه يحضره خياليًا مسترجعًا من ذكرياته ما فات. ينطوي مرة على نفسه فيتغزل عن العالم الخارجي فيئن بداخله ألمًا وحسرة. وهذا ما ستبرزه المقدمة الطللية لإمرئ القيس إذ يقول:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ
بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصَاتِهَا وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأَنِّيْ غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
وُقُوْفًا بِهَا صَحْبِيْ عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ[2]

إن تحديد الشاعر لمكان الديار تحديدًا دقيقًا، يدل على ارتباطه النفسي بها وشعوره بالانتماء إليها، فالتنوع والتعدد في الوصف والتصميم عليه يجعل الشاعر يسرد حكاياه الداخلية فيعطي تمثيلاً وتصورا شعريًا خالصًا «لأن المكان في الشعر يعتمد التكثيف

---

[1]- أحمد حسين عبد، ظاهرة الأطلال في الشعر العربي قبل الإسلام، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية بغداد، عدد1، سنة 2005، ص: 32.

[2]- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص: 90.

والتمثيل ليؤدي إلى لون من التصوير الذي يحدث على مستوى النفس فقط، حين يجعلها تتمثل من خلال المكان جملة من الأحاسيس والمشاعر التي ربما أثارها المكان بمحمولاتها التذكرية التي لها صلة بالذات في لحظة من لحظاتها السالفة. والتمثيل يحيل المكان إلى عملية القلب التي ترتفع بالمكان من الوجود الفعلي إلى الوجود المتصور في أعماق الذات»[1] وهنا نستطيع القول بأن الشاعر يقدم رؤية جديدة في خلق تجربة شعرية وإثارة مشاعر القارئ، كما أنه يدقق الوصف حتى لا يصبح المكان خالياً من معانيه، بل يتعدى إلى أن يكون رمزاً يحمل عمق الأحاسيس.

نرى أن الشاعر قد عطف بين أسماء الأماكن بالفاء، وهو عرف سار عليه الشعراء في العطف بين أسماء المواضع الطللية ويمكن تفسير هذا العطف لإظهار وحدة هذه المواضع في مشاعرهم وربطها بذكرياتهم وأحاسيسهم وهو «عطف إختلف القدماء في تعليله بعيدًا»[2] وكلها تعليلات نحوية، إلا أن البعض أعطى لأسلوب العطف هذا تفسيراً نفسياً ليقول:«وفي ظني أن المسألة لا تفسر هذا التفسير النحوي، وإنما يجب أن تُفسر على أساس نفسي، فظهور الفاء كوسيلة للعطف بين هذه المواضع إنما هو لفتة نفسية بارعة يريد بها الشاعر أن يدل على أن هذه المواضع برغم تباعدها في الواقع، متقاربة في نفسه... وندارة مثل هذه الصورة تكمن في قياسها لدرجة الانفعال والحزن على فقدان لمكان المسرح العاطفي الذي لا تزال ذكرياته تعيش فوقه حية بل دافقة بالحياة فهي جميعاً يضمها قلبه ويتسع لها»[3] وبالتالي كان هذا العطف بين أسماء الأماكن طريقة لإظهار مشاعره الحزينة والفقدان اتجاه الأحبة وديارهم فكل موضع من هذه المواضع يمثل له ذكرى وفراقاً مؤلماً.

---

[1]- نجيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، (قراءة موضوعاتية جمالية)، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سنة 2001، ص: 9.

[2]- يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص: 127.

[3]- ينظر: محمد صادق جمعة إبراهيم، المكان في شعر الحرب، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الموصل، سنة 2005، ص: 161.

الإنسان من طبعه ميال، فهناك أماكن يقبلها وأخرى يرفضها فالمقبولة بالنسبة إليه هي مكان اللجوء والاختباء فيلجأ إليها آملا أن تهدأ نفسه لذلك نجد الشاعر «عاش تجربتين من وصف معاناته النفسية لمفارقته المكان، فيخفف من وطأة هذا الأمر عليه بأن يهدد الأمكنة والمواضع. فثمة مكان طللي كان يؤويه ويهرب إليه، وموطن يحن إلى آثاره فحقيقة تجربة المكان الطللي تحتوي على بغيات ثلاث (الإنسان والزمان والمكان) ولا تتشكل صورة المكان إلا بهذا الاجتماع»[1] وهنا يبرز الشاعر أهمية تعدد الأمكنة في بناء الشخصية وتجاوز تجربة الفراق والقفز على المعاناة .

لا تخلو أي مقدمة طللية من ذكر المواضع فهي إن خلت تعد بتراء عاجزة عن تلبية المقصد لذلك كان المكان حاضراً بقوة عند الشاعر امرئ القيس "سقط اللوى، الدخول، حومل، توضح المقراة" تلك الديار التي بكاها، «قد جرى العرف الفني في المقدمة على ذكر أسماء المواضع التي تقع فيها الأطلال وتحديدها تحديداً جغرافياً دقيقاً وهي ظاهرة ترتبط ... بنفسية الشاعر الذي تمثل لهذه المواضع قطعة من نفسه ... وهو لذلك وفي لها متشبث بها»[2] إذ يؤثر المكان تأثيراً بليغاً على نفسية الشاعر حيث يعبر عن مشاعره من خلال وصفه الدقيق لهذه الأماكن فهو يشعر تارة بالوحدة والإكتئاب وتارة بالخوف من الموت.

إن أهم ما يجعل الشاعر يقف عند الطلل مسترجعًا لذكرياته هو علاقته ورغبته في تنوير الفضاء وإعطائه مكانة خاصة في ذاته إثارة لمشاعر الحنين والذكريات لذلك « ترد دعوة الرفيقين والحوار معهما. يمكن إلى سببين يتجلّى الأول في رغبة الشاعر وقد صدت أمامه سبل التواصل مع الفضاء وقد شكل خلاء وقفار ويتجلّى الثاني في أن الشاعر يقدم لحضور الرفيقين علاقته بالفضاء وقد قام بتعزيته وطلب منه الصبر والتجلد، فحضور

---

[1]– رافعة سعيد حسين السراج، معاينة الطلل أرضية الانتماء المكاني (الشعراء المخضرمون أنموذجا قسم اللغة العربية جامعة الموصل، مجلة جامعة زاخو، المجلد 1، العدد 1، العراق، سنة 2013، ص:167.

[2]– عز الدين إسماعيل، روح العصر، دار الرائد العربي، بيروت، ط 1، سنة 1978، ص: 20 – 22.

الرفيقين يسهم في إيضاح علاقة الشاعر الذي بدا متأثرًا بالفضاء الطللي»[1] خصوصية التعبير عن المكان في القسم الطللي تنطلق من ذاتية الشاعر باعتباره متكلمًا ومحاورًا رفيقيه ومتسائلًا ومناديًا فكان «أكثر ما يتراءى في هذه المقدمة يتراءى واقفا بها مستوقفًا أصحابه باكيًا ذكرياته التي عاش فيها يوم كانت عامرة بأهلها»[2] إذ يظهر لنا جليًا أن الشاعر يلتمس حضور الرفيقين للمواساة وإطراءا لنفسيته لتجاوز الحزن والأسى ومحاولة إحياء الفضاء ومده بحياة جديدة.

إنّ المكان، باختلاف عناصره، لا يبقى مجرد فضاء مادي، بل يقفز لأن يحمل تجارب الشاعر ومشاعره، لترك بصمة من وجوده فيصبح المكان شاهدًا ومرآة تعكس حالته النفسية لذلك فهو «يحتوي على جميع التفاعلات النفسية التي تصحب مظاهر الشاعر الحياتية من ترحل وقطع قفار في سبيل إيجاد ما يستطيبه ويُقيّم به ويوفّر له حاجياته فكان مجرد حضور المكان في النص الشعري إشارةً إلى معاناة الشاعر واختزالا لسعيه إلى الإحساس بالثبات النفسي فتوسّل لتحقيق ذلك اتجاه ما يثير انفعالاته سواء كانت رحلة الظغن أو آثار الحبيبة»[3] نستطيع أن نتوصل من خلال هذا أن المكان يمثّل رمزًا للإنتماء وعنصرًا هامًا في التعبير عن التفاعلات النفسية.

لا ينفصل تأثير المكان عن النفسية البشرية، فهو يترك بصماته عليها جلية سواءا جلب لها الراحة والسكينة،أم أوغر في صدرها مشاعر الحزن والكآبة، كما عبر عن ذلك امرؤ القيس في شعره الذي ربط فيه بين مشاعره والأماكن التي مرّ بها لذلك «إن نفسية الشاعر تمر بمراحل شتى من الفرح وتذكر الأيام الجميلة التي كانت تجمعه بمن يحب ومغامراته ولهوه مع الحبيبة، إلى الحالة السلبية التي هي يوم الفراق حيث افترق الحبيبان، وتركت المحبوبة الديار وقصدت أخرى، وظل الشاعر يبكي على فراقها وقطيعتها له، إذ

---

[1]- عمارة الجداري، المكان والبعد النفسي في الشعر العربي القديم المفضليات أنموذجا: ص: 10.

[2]- مي يوسف خليف، القصيدة الجاهلية في المفضليات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1989، ص:156.

[3]- عمارة الجداري، المكان والبعد النفسي في الشعر العربي القديم المفضليات أنموذجا، ص: 15.

تحدث عن المكان والعوامل التي طرأت عليه وغيرت فيه من أمطار ورياح وحيوانات، التي حولت المكان إلى آخر لا يشبه الأول»[1]. فمن خلال هذا نستطيع فهم رحلة الشاعر من الفرح إلى الحزن وكيف يلعب المكان دورًا مهمًا في تعميق مشاعره وتأثيرها على نفسه، فالمكان ليس مجرد مساحة فارغة بل هو حكاية تُروى، وذاكرة تحفز وروح تسكن لذلك لا عجب أن نجد تأثيره النفسي جليًا على مشاعرنا وسلوكياتنا.

يُعبر الشاعر عما يشعر به ويراه، وينقل إلينا هذه الصورة بكل تشكيلاتها وأبعادها النفسية والاجتماعية إذ نجده يصف «في افتتاحية معلقته الوقوف على الأطلال والديار واختلاف الرياح عليها وآثار الظباء وحنينه إلى الأحبة والبكاء على فراقهم، وبدأ بفعل الأمر"**قفا**" الذي يعد فعلا طلبيا فيه انفعال وحدة على الصعيد النفسي، وفيه مشاركة مع الآخرين على الصعيد الاجتماعي، ويمضي في تجربته فيعدد الأماكن التي تُذكره بالمحبوبة فيبكي ويستبكي ناقلاً تجربته إلينا عبر كلمة "ذكرى"»[2] فتذكر هذه الأماكن والمنازل التي خرج منها والحبيب الذي فارقه هذا ما يدفعه إلى الحزن والتشاؤم والألم الداخلي.

لا يقتصر حنين الشاعر على تذكره للديار عند وقوفه على الأطلال، بل يمتد حنينه ليشملها أيضًا عند وقوفه عند الحي بعد رحيل أحبته «فسمرات الحي هي المكان الذي وقف عليه الشاعر المتمثلة في القبيلة التي يعتز ويفتخر بها أي المكان الذي ينتهي إليه فيصف حالته عند وقوفه عليها بجانب الحنظلة من كثرة حزنه فهو يتحسر لما آل إليه وضع القبيلة التي تذكره بكل ما هو جميل في حياته، وما زاده ألما وحزنا عندما وقف أصحابه عليه يواسونه وهو ينظر إلى رواحلهم، ويأمرونه ألا يحزن وأن يتجمل بالصبر

---

[1]- سارة فلاح محمد، أبعاد المكان في شعر امرئ القيس، مجلة قه لاى زانست العلمية،اربيل،كوردستان،العراق،مجلد8،العدد1شتاء،2022 ،ص: 819.

[2]- المرجع نفسه، ص: 816.

وهذا ما جعله يصل إلى مرحلة ذروة الضيق النفسي»[1] وهذا ما يفسر شدة الضيق النفسي حين لجأ الشاعر إلى هذا المكان، مستجيرًا به من هجير الحب والوله بعد رحيل محبوبته.

يؤكد الدكتور أبو القاسم رشوان على أهمية اللوى في تجربة امرؤ القيس الشعرية مشيرًا إلى أن هذه المنطقة قد احتلت مكانة مميزة في شعره وجعلها متفردة عن غيرها من الأماكن إذ يقول: «لقد اصطفى الشاعر "وادي اللوى" من بين أماكن عديدة ليكون موطن ذكرياته ومترل أحبائه وما أحباؤه هنا إلا الذين عصف الدهر بهم وبمنازلهم واللوى كثير الورود في الشعر القديم،كثرة جعلته عنصرا هاما من عناصر المعجم الطللي، وذكره ما يستدعي ما له من ترسب قديم في وجدان العربي واستدعاء ما وقع فيه من أحداث وما لهذه الأحداث من تأثير في تاريخ القبائل المتصارعة»[2] وبالتالي أصبح هذا المكان رمزًا للحنين إلى الماضي وفراق الأحبة، وتركيز الشاعر عليه دون غيره يعود لأسباب نفسية تتعلق بالشعور بالفقدان والبحث عن الهوية والشعور بالوحدة.

في ضوء ما سبق، يمكننا استخلاص أن المكان احتل حضورًا قويًا في الشعر الجاهلي وارتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة الشاعر وبيئته، عبر عن مختلف جوانب حياة العرب في الجاهلية، من صحراء شاسعة ووديان وجبال، إلى ديار عامرة وأطلال خالية، تجاوز كونه مجرد فضاء جغرافي، ليصبح حاملًا لرمزيات ودلالات عميقة، تعكس مشاعر الشاعر وأفكاره وتجاربَه، فقد وظفه الشعراء ببراعة في مقدماتهم الطللية، فبدون المكان تفقد المقدمة الطللية جوهرها وروح الشعر. بحيث أنّه يلعب دورًا هامًا في استثارة مشاعر

---

[1]- كهينة مكراب، الذاتية في الشعر الجاهلي تناول تداولي لمعلقة امرئ القيس، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تحت إشراف الدكتور يوعلي كمال، كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي تخصص علوم اللسان وتحليل الخطاب سنة 2014 – 2015، ص: 103.

[2]- أبو القاسم رشوان، استدعاء الرمز المكاني في الشعر القديم، مكتبة الآداب، القاهرة، د ط، سنة 1998 م، ص: 102.

الشاعر وكذلك يساعد على إثارة ذكرياته الجميلة مع الحبيبة في تلك الديار، مما يضاعف مشاعره بالحزن والشوق، ويساعد كذلك على ربط الماضي بالحاضر حيث يقارن بين ماضي الديار المزدهر وحاضرها الخالي، كما يعبر المكان كذلك عن فلسفة الشاعر حول الحياة والموت، حيث يدرك الشاعر أن كل شيء زائل، وأن الديار التي كانت عامرة قد خلت من ساكنيها. هذا فيما يخص المكان في الشعر الجاهلي، وبالخصوص في مقدمة القصائد التي تفتتح بالبكاء على الديار.

خاتمة

خاتمة:

بعد رحلتنا في رحاب فلسفة الزمان والمكان في الشعر الجاهلي وتحديدا البكائية الطللية، تجلى لنا إحساس الشاعر العميق بهما، وتفاعل وتباين مواقفه منهما، حان الوقت لحصاد ثمار هذه الدراسة وتسجيل أبرز النتائج التي توصلنا إليها نوجزها فيما يلي:

- اتخذ الزمان صورة سجن قاس يحاصر الشاعر ويمزق أحشاءه، ويعمق جراحه.
- تحول المكان في البكائية الطللية إلى شاهد على ذكريات الشاعر الجميلة مع أحبائه، فكل ركن في الديار يثير في نفسه مشاعر الحزن والألم، لذلك وجدنا الشاعر يكثر من مخاطبة الديار واستحضار مشاهد الماضي، كأنه يحاول استعادة أحبابه من بين طيات الزمان.
- تكشف لنا البكائية الطللية عن فلسفة شعرية عميقة حول الزمان والمكان، فالشاعر يدرك أن الزمان لا يمكن إيقافه، وأن المكان يتغير بفعل مرور الزمان.
- تعلق الشاعر الجاهلي بالطلل، تلك الآثار الباقية من ديار الأهل والقبيلة، وجعلها رمز لفناء الحياة وزوالها ففي المقدمة الطللية، يربط الشاعر بين الزمن الحاضر والماضي، إذ يتميز الطلل في الزمن الحاضر بالخلو من كل مظاهر الحياة، فهو أشبه بصحراء قاحلة، بينما يتجلى الزمن الماضي في الطلل كزمن مليء بالحياة والآمال وبذلك يشكل الطلل مقارنة صريحة بين الماضي والحاضر حيث يمثل الماضي زمن السعادة والحياة، بينما يمثل الحاضر زمن الفراق والموت.
- أثقل هاجس الزمان كاهل الشاعر فاتخذه عدوا يطارده وينغص عليه عيشه رأى فيه كائنا جبارا لا يقهر ينساب كالماء دون توقف، ولا يمكن الإمساك به أو السيطرة عليه.
- كانت المأساة هي جوهر المقدمة الطللية، وشعور الشاعر بالفجيعة هو أساسها ورباطها، فالشاعر كان في هذه الديار وكانت إذ ذاك عامرة بالحياة والبهجة

والأنس، فأصبحت قفرا موحشا وخرابا شديدا تلاعبت به الرياح، وعبثت به أيدي الأيام.

- تشكل فلسفة الزمان والمكان أحد أهم المحاور التي تميز البكائية الطللية، حيث وظف الشاعر هذين العنصرين ببراعة لخلق جو من الحنين إلى الماضي والتأسف على رحيل الأحبة.
- كان المكان بكل تفاصيله ودقائقه هاجسا يسيطر على تفكير الشاعر الجاهلي، لدرجة أنه راح يخاطبه ويتساءل عن أسراره الخفية.
- تجلى ولع الشاعر الجاهلي بالمكان وجزئياته وحيثياته بشكل جلي، حتى وصل به الأمر إلى مخاطبته وسبر أغواره بحثا عن إجابات غامضة.
- تظهر أثار هذا التعلق بوضوح في بكائه الدائم على الأطلال التي خلفها الزمن، وتحول خطاباته إلى صرخات في واد قاحل، بعد أن تحطمت كل محاولاته للسيطرة على المكان أمام جبروت الزمن.
- كشف لنا هذا البحث ثراء فلسفة الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، وتجلى هدا بوضوح في القصائد البكائية الطللية، فقد برز الزمان كعنصر مركزي في بنية هذه القصائد، حيث تم تقسيمه إلى ماض وحاضر ومستقبل فارتبط كل زمن بمشاعر وأحاسيس مختلفة لدى الشاعر، كما لعب المكان دورا هاما في تكوين المعنى الشعري، حيث تحول إلى رمز للحبيبة وذكرياتها، وعبر عن مشاعر الشاعر من حنين وشوق وألم الفراق.
- أظهر لنا البحث أن الزمان والمكان في الشعر الجاهلي وبالخصوص في البكائية الطللية ليسا مجرد عناصر مادية، بل هما رموز تعكس مشاعر الشاعر وأفكاره.
- كشف البحث عن قدرة الشاعر الجاهلي على توظيف الزمان والمكان لخلق صورة شعرية حية ومؤثرة.

- أبرز البحث دور القصائد البكائية الطللية في الكشف عن فلسفة الإنسان العربي الجاهلي وتصوره للزمان والمكان.
- لقد أثبت لنا هذا البحث أن الشعر الجاهلي، وخاصة القصائد البكائية الطللية، زاخر بالمعاني الفلسفية العميقة وأن الزمان والمكان يشكلان عنصرين أساسين في بنية هذا الشعر، كما أكد البحث أهمية دراسة الشعر الجاهلي لفهم ثقافة وفكر الإنسان العربي في العصر الجاهلي.
- قدمت لنا البكائية الطللية فكرة واضحة على فلسفة الزمان والمكان عند العرب قبل الإسلام، وجسدت هذه القصائد صلة الإنسان العميقة ببيئته، وعبرت عن مشاعره اتجاه الماضي والحاضر والمستقبل.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

أولا : القرآن الكريم

ثانيا: المصادر

1) – إبراهيم مصطفى أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، مادة: (مكن)، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ط4، 2005.

2) – ابن فارس، أبو الحسين بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، (باب الزاي والميم وما يثالثهما)، تحقيق: عبد السلام هارون، ج3، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، 1993.

3) – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مادة: م.ك.ن، ج:13، د ط، بيروت، لبنان.

4) – أبو الحجاج يوسف بن سلمان بن عيسى المعروف بالأعلم النحوي الشمنتري، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى المزني، صححه محمد بدر الدين ابي فراس النعساني الحلبي، المطبعة الحميدية المصرية، د ط، 1906.

5) – أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، د ط، دار الكتب المصرية، مصر القاهرة، سنة 1994.

6) – أبو عمرو الشيباني، شرح المعلقات التسع، تحقيق وشرح عبد المجيد همّوا، ط 1، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة 2001 .

7) – أحمد أمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر،تحقيق، محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط، 2005.

8) – امرؤ القيس الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط 5.

9) – امرؤ القيس، ديوان ، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط2، 2004.

10) – حميد بودشيش، الأصيل القاموس العربي الوسيط، دار الراتب الجامعية، بيروت، ط1، 1997.

11) – الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، (مادة الزاي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

12) – ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، دب، ط2.

13) – الراغب الإصفهاني، مفردات غريب القرآن، مادة (مكن) نح: محمد أحمد خلف الله، الإنجلو مصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1970.

14) – زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، (د ت)، سنة 2016.

15) – الزوزني، شرح المعلقات السبع ،دار إحياء التراث العربي، ط 1، سنة 2002.

16) – لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، حققه وقدمه إحسان عباس، كوين، (د ط)، سنة 1962.

17) – مرتضي الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (مكن)، ج:9، دار صادر، د ط، بيروت، لبنان، 1966.

ثالثا : المراجع

1) – إبراهيم عبد الرحمن محمد، بين القديم والجديد، مكتبة الشباب، القاهرة سنة 1987م، ط 1.

2) – إبراهيم عبد الرحمن محمد، قضايا الشعر في النقد العربي، دار العودة، ط 2، بيروت، 1981 م.

3) – إبراهيم محمود، صدع النص وإرتحالات المعنى، حقيقة النص بين التواصل والتمايز، مركز الانتماء الحضاري، د ب، ط1، 2000.

4) – ابن حبيب أبو جعفر محمد، المحبر، المكتب التجاري للطباعة والنشر،بيروت، سنة 2009.

5) – ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

6) – ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدائه، تحقيق: محمد يحي الدين عبد الأمير، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1961.

7) – ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء،تحقيق أحمد شاكر،دار المعارف،القاهرة،1966.

8) – أبو البقاء، الكليات،تحقيق محمد وأنس الشامي،دار الحديث القاهرة ،طبعة القاهرة،2014 . .

9) – أبو القاسم رشوان، استدعاء الرمز المكاني في الشعر القديم، مكتبة الآداب، ط 1، القاهرة، 1995 م.

10) – أبو عبد الله محمد بن عمران المزرباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر، 1965.

11) – أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، 1419ه.

12) – إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، الأردن، د ط، 1997.

13) – أحمد درويش، في نقد الشعر الكلمة والمجهر، دار الشروق، مصر، القاهرة، ط 1، سنة 1996.

14) – إسماعيل عز الدين، التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، الفحالة، ط 4، د س.

15) – اعتدال عثمان، إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، سنة 1988 م.

16) – باديس فوغالي، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2007.

17) – البدري فؤاد عبد الغني، المقدمة الطللية في معلقة زهير بن أبي سلمى. دراسة بلاغية نقدية.

18) – بند يتو كروتشه، علم الجمال، عرية نزيه الحكيم راجعه، بديع الكسم، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، المطبعة الهاشمية، عمان، الأردن، سنة 1963.

19) – بول ريكور، الذاكرة والتاريخ والنسيان، دار النشر، كلية الأدب والمعلوم الإنسانية الرباط ، د س.

20) – الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط5، 1985.

21) – الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر، ج3، د ط، 1969.

22) – جعفر الشيخ عبوش، السرد ونبوءة المكان، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015.

23) – حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، د ط، 1966.

24) – حسن حسين الحاج، أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط2، سنة 1990 م.

25) – حسن عَزة، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، دراسة تحليلية، دمشق، د ط،سنة 1968.

26) – حسن مجيد الربيعي، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشروق الثقافية العامة، ط1، بغداد، العراق، 1998.

27) – حسن يوسف، الشعر الجاهلي في دراسات المستشرقين الألمان، دار الوفاء، د ب، ط1، 2013.

28) – حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة العربية، د ب، ط1، 1980.

29) – الحوت محمود سليم، في طريق الميخولوجيا عند العرب، دار الكتب، بيروت، د ط،سنة 1979.

30) – حيدر لازم مطلك، الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، د ط،سنة 2010 م.

31) – الخالديان، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية المخضرمة، تحقيق: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1958.

32) – رعد أحمد الزبيدي، في الشعر الجاهلي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط1، 1991م.

33) – ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى إمرئ القيس،دار الاداب ،بيروت،لبنان،ط1992،2.

34) – زكريا بن يحي بن علي التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة محمد علي صبيح، مصر، سنة 1980.

35) – زكريا صيام، دراسة في الشعر الجاهلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1984.

36) – الزمخشري، أبو القاسم جار الله، أساس البلاغة، تحقيق: محمد أسيل، عيون السرد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1998.

37) – سامي سويدان، في نص الشعري العربي، مقاربات منهجية،دار الآداب، بيروت، ط 2، سنة 1999.

38) – ستيفن هوكنغ، موجز تاريخ الزمن من الانفجار الأعظم إلى الثقوب السوداء، أكاديميا، ط 1، سنة 1990.

39) – سعيد اسماعيل شبلي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب، ط 5، القاهرة، 2001 م.

40) – سعيد علي أدونيس، ديوان الشعر العربي، دار الفكر، بيروت، ط1، سنة 1987 م.

41) – سميح دغيم، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، ج:2، مكتبة لبنان، ط1، 1998.

42) – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1971.

43) – سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1984.

44) – الشريف جميلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010.

45) – شكري عزيز الماضي وآخرون، فنون النثر العربي الحديث، منشورات جامعة القدس المفتوحة، 2015، عمان، الأردن.

46) – الشورى مصطفى عبد الشافي، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، الشركة المصرية للنشر، مصر،ط1، سنة 1996.

47) – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط1، د.س.

48) – صلاح رزق، الشعر الجاهلي والسياق والملامح، دار الغربي، القاهرة، مصر، د ط، 2005.

49) – عبد الإله الصائغ، الزمن عند شعراء العرب قبل الإسلام، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، العراق، د ط، 1982م.

50) – عبد الرحمن بدوي، الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية، ط 2، القاهرة، سنة 1955.

51) – عبد الرحمن نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، د ط، سنة 1976 م.

52) – عبد الرؤوف برجاوي، فصول في علم الجمال، دار الأفاق الجديدة ، ط1، بيروت، لبنان سنة 1981.

53) – عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، د ط، تونس، 1988.

54) – عبد العظيم حقي، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، سنة 1987.

55) – عبد القادر رباعي، الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، الرياض، دار العلوم ط1، سنة 1984.

56) – عبد القادر رباعي، الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشمتمري، تحقيق فخر الدين قباوة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط3، سنة 1980.

57) – عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، سنة 1998 م.

58) – عبد القادر فيدوح، دلائلية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، سنة 1993.

59) – عبد الله العشي، أسئلة الشعرية، بحث في آلية الإبداع الشعري، منشورات الاختلاف الجزائر، ط 1، سنة 2009.

60) – عبد الله رضوان، البنى الشعرية دراسات تطبيقية في الشعر العربي، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، د ط، سنة 2005، ص 192.

61) – عبد المالك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1982.

62) – عبد المالك مرتاض، السبع معلقات مقاربة سيميائية أنتروبولوجية لنصوصها، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، سنة 1998م.

63) – عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي لحكاية جمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1993.

64) – عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

65) – عز الدين إسماعيل، روح العصر، دار الرائد العربي، بيروت، ط 1، سنة 1978.

66) – عسكر قصي الشيخ، أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة، دار معد، دمشق، د ط،سنة 2007.

67) – عطوان حسن، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط1، د س.

68) – على الغيضاوي، الإحساس بالزمان في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة منشورات كلية الآداب بمنوبة، ج 1، د ط، سنة 2001 م.

69) – على محمد الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي، ط 1، مكتبة الأدب الغريب، بالقاهرة، سنة 2003.

70) – علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، د ب، ط1، 1996.

71) – علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط4، 1968 .

72) – علي عبد المعطي محمد، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط1، 1984.

73) – عمر فروخ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط2، 1984.

74) – عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج: 07،د ط، د س.

75) – غازي طليمات عرفان الاشقر، الأدب الجاهلي، قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، ط1. دار الإرشاد بحمص،دمشق، 1999.

76) – فريد جحا، الحنين إلى الوطن في شعر المهجر، المطبعة العربية، حلب، سوريا، ط1، سنة 1961.

77) – فيصل نذير عون، الفلسفة الإسلامية في الشرق، دار الثقافة للنشر، القاهرة، مصر، د ط، 1982.

78) – القاضي أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن،تحقبق احمد صقر، دار المعارف، مصر طبعة عالم الكتب، 1997.

79) – قدامة بن جعفر، أبو الفرج، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1979.

80) – كارلين صادر، من شعراء الأمكنة في العصر العباسي، المعرفة 44505 (شعبان 1426 هـ تشرين الأول 2000 م)، دمشق.

81) – كريم زكي حسام الدين، الزمان الدلالي دراسات لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية، مكتبة الأنجلو مصرية، ط 1، القاهرة 1991.

82) – كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (البنية والرؤيا)، الهيئة المصرية العامة، د ط، مصر، 1987.

83) – كمال نجم الدين، المكان في النص الشعري، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، سنة 1978 م.

84) – الكندي، رسائل فلسفية، تحقيق: محمد عبد الهادي بوريبة، ق1، مطبعة حسان للنشر، ط2، القاهرة، مصر، 1987

85) – محمد أبو زيان وحربي عباس عطيبو، دراسات في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1997.

86) – محمد الدمنهوري، الحاشية على متن الكافي في علم العروض والقوافي، مطبعة التقدم العلمية، مصر، د ط، 1322ه.

87) – محمد بلوحي، آليات الخطاب النقدي العربي، الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2004.

88) – محمد زغلول سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي، دراسة في البيئة والشعر، د ط، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، د ت.

89) – محمد زكي عشماوي، قضايا النقد الأدبي والبلاغة، د ت، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، د ط، 1967.

90) – محمد زكي العشماوي، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1981م، ط 1.

91) – محمد صالح الشنطي، الموجز في الأدب العربي عبر العصور (د ط)، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، د ت.

92) – محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1987.

93) – محمد عبد الواحد حجازي، الأطلال في الشعر العربي، دراسة جمالية، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، د ط، سنة 2013.

94) – محمد عبيد صالح الميهاني، المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار الأفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2007.

95) – المرزوقي، أحمد بن محمد بن حسن، الأزمنة والأمكنة، ضبطة خليل المنصور دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، 1996.

96) – مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، نشر والتوزيع، سنة 1981.

97) – معجم اللغة العربية، معجم الوسيط، مطبع الأوقست، يشركو، الإعلانات الشرقية، ط 3.

98) – منذر ذيب كفافي، الشعر الجاهلي في كتب المختارات الشعرية، دراسة في الشكل والمضمون، جدار للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط1، 2006.

99) – منصور نعمان نجم الدين مي، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1999.

100) – مهران، الحضارة العربية القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د ط، سنة 2008.

101) – موسى ربابعة، تشكيل الخطاب الشعري، دراسات في الشعر الجاهلي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، سنة 2011.

102) – مي يوسف خليف، القصيدة الجاهلية في المفضليات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1 ، 1989.

103) – مي يوسف خليف، الموقف النفسي عند شعراء المعلقات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، سنة 2015 م.

104) – ميادة كامل اسير، شعرية أبي تمام، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق (د ط)، سنة 2011.

105) – ميجان الروبلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب ط 3، سنة 2002.

106) – نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث هجري، دار البحار، القاهرة، ط 1، 1950.

107) – نجيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، (قراءة موضوعاتية جمالية)، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سنة 2001.

108) – النعيمي أحمد، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، سينا للنشر، مصر، د ط، سنة 1955.

109) – نوري القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الأرشاد للطباعة والنشر، بيروت.

110) – يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1986.

111) – اليعقوبي، أبو جعفر أحمد ابن إسحاق، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت،ج 1، 1960 م.

112) – يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، سنة 1975.

113) – يوسف حسني، الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د ط، سنة 1977 م.

114) – يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، سنة 1981.

115) – يوسف عطا الطريقي، شعراء العرب العصر الجاهلي، أهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2006.

116) – يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

117) – يوسف محمود عليمات، تمثيلات النقد النسقي في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع،د ب، ط1، سنة 2015.

رابعا: الكتب المترجمة

1) – أرسطو طاليس، الطبيعية ،ت إسحاق بن حنين، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1994.

2) – غاستون ياشلار، جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، د ط، د ب، 1982.

3) – غاستون ياشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، لبنان، 1994

خامسا: المجلات

1) – احسان محمود سليمان، المكان في المقدمات الطللية في شعر المعلقات (دراسة نقدية تحليلية)، مجلة البحث العلمي في الآداب،يناير، كلية التربية والآداب جامعة تبوك، سنة 2020.

2) – أحمد حسين عبد، ظاهرة الأطلال في الشعر العربي قبل الإسلام، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية بغداد، عدد1، سنة 2005.

3) – أحمد عبد المنعم حالو، تجليات المكان في شعر المعلقات (دراسة تحليلية تأويلية)، مجلة: سر من رأي، المجلد 13، العدد 50، جامعة سمراء كلية التربية، سنة 2017 م.

4) – أحمد وهب رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 207.

5) – أسماء أبو زيد محمد أبو زيد، أصداء الزمن عند الشاعر الجاهلي، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد 36، سنة 2021م.

6) – الطيب بن جامعة، التقاطع الزمني في القصيدة العربية القديمة، مجلة فصل الخطاب، العدد الثامن، المجلد الثاني، لسنة 2014، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر.

7) – الفاتح صديق عبد الفراج أحمد، الوقوف والبكاء على الأطلال في شعر المعلقات الجاهلية، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، كلية التربية، جامعة كردفان، السودان المجلد (4)، العدد 3، فبراير 2023.

8) – أنور أبو سويلم، قراءة في معلقة طرفة بن العبد، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الرابع الآداب، الرياض، سنة 1992.

9) – بسام علي أوبشير، جماليات المكان في رواية باب الساحة لسحر خليفة، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مج 15، عدد 02، 2007.

10) – بن بغداد أحمد، دلالة المكان في الشعر الجاهلي، المركز الجامعي، أحم بن يحى الونشريسي، تيسمسيلت، العدد17، جوان2017.

11) – حسام الدين الألوسي، مجلة عالم الفكر، عدد خاص عن الزمن، المجلد الثاني، عدد 02، 1975.

12) – رافعة سعيد حسين السراج، معاينة الطلل أرضية الانتماء المكاني (الشعراء المخضرمون أنموذجا قسم اللغة العربية جامعة الموصل، مجلة جامعة زاخو، المجلد 1، العدد 1، العراق سنة 2013.

13) – زهرة بنيني، سيمياء المكان وتشكيل الدلالة في المقدمة الطللية للشعر الجاهلي، جامعة باتنة (الجزائر)، المجلد 17، العدد 2، سنة 2022.

14) – عباس إقبالي، دلالة الزمان الحقيقية والرمزية في الشعر الجاهلي، مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، العدد 07، سنة 2018.

15) – عبد العزيز محمد طشطوش، المكان في شعر زهير بن أبي سلمى، حوليات آداب عين الشمس، المجلة 40، أكتوبر – ديسمبر، سنة 2012.

16) – عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني الثقافي والفنون والأدب، عالم المعرفة، الكويت، عدد 24.

17) – علي مصطفى العشا، الوقفة الطللية بين القبول والتساؤل في رؤى بعض الشعراء الجاهليين، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، عدد 1، سنة 2005 م.

18) – عمار بن لقريشي، دلالة المكان في الشعر الجاهلي، جامعة محمد بوضياف المسيلة، حوليات الآداب واللغات، مج 2016، العدد 7.

19) – عمارة الجداري، جماليات التعبير المكاني في الشعر العربي القديم من خلال المفضليات والمعلقات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، تونس، مجلة جبل

الدراسات الأدبية العدد 38، مج 5، مركز جيل البحث العلمي، الجزائر، سنة 2018.

20) – عواد صالح اليحياوي، جدلية الحركة والسكون في لوحة الليل في معلقة امرئ القيس، مجلة نقد وتنوير العدد 04، السنة الثانية.

21) – فالتبراونة، الوجودية في الجاهلية، مجلة المعرفة السورية، السنة الثالثة، العدد 4، حزيران. 1973.

22) – محمد أحمد برير، الليل والنهار في معلقة امرئ القيس حاشية على قراءة ثانية، مجلة فصول، مج 14، عدد 2، سنة 1995.

23) – نصرت صالح يونس، الليل في شعر امرؤ القيس، قراءة جديدة مجلة التربية للعلوم الإنسانية جامعة الموصل مجلد 1، العدد 4، سنة 2021 م.

24) – نهى خليل إبراهيم، فاعلية الزمان والمكان في شعر لبيدوذي الرمة، بحث مستهل من أطروحة دكتوراه، جامعة ديالي، كلية التربية للعلوم الانسانية، مجلة ديالي، العدد 84، سنة 2020.ت

25) –سارة فلاح محمد،أبعاد المكان في شعر امرئ القيس،مجلة قه زانست العلمية،اربيل،كوردستان،العراق،مجلد8،العدد1،شتاء،2022.

26) – سعيد محمد الفيومي،فلسفة المكان في المقدمة الطللية،مجلة الجامعة الاسلامية،المجلد15،العدد02،جامعة القدس المفتوحة،غزة،فلسطين،2007.

27) – هانم محمد فكري عكاشة، مفهوم الزمان بين الفكر الفلسفي اليوناني والفكر الفلسفي الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، مصر، عدد 100، 2022.

سادسا: المراجع الأجنبية

1) - Gemette. Figure 2. Edition de seuil Paris 1969.

2) - Youri lotmane. La structure du texte artistique. Trad francaise.ame fourite et autre. Fd.gualimard.1973.

سابعا: الرسائل الجامعية

1) – جنات جهيدة، رمزية المكان في الشعر الجاهلي، شعر زهير بن أبي سلمى أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة ماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، الجزائر، سنة 2018.

2) – راضية لرقم، النص السردي عند الحطيئة وعمرو بن الأهتم دراسة سيميائية، رسالة ماجيستر (مخطوطة) جامعة منتوري قسطينة، كلية الآداب واللغات، سنة 2008.

3) – سلمى باحشوان، المكان في شهر طاهر الزمخشري، رسالة ماجستير، الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، سنة2009.

4) – فتيحة قيعص، شعرية الزمن في مقدمة القصائد الجاهلية من خلال نماذج مختارة، جامعة محمد الصديق بن يحيا، جيجل، سنة 2020م.

5) – فواز معمري،"جماليات المكان في الشعر الجاهلي" (المعلقات أنموذجا)، إشراف عمار قريشي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص علوم في الأدب العربي، جامعة مسيلة، الجزائر، سنة 2017 – 2018.

6) – فيصل فلقت، أعلام المكان في المعلقات السبع (دراسة دلالية)، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، سنة 2022 – 2023.

7) – كهينة مكراب، الذاتية في الشعر الجاهلي تناول تداولي لمعلقة امرئ القيس، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تحت إشراف الدكتور يوعلي كمال، كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي تخصص علوم اللسان وتحليل الخطاب سنة 2014 – 2015.

8) – محمد صادق جمعة إبراهيم، المكان في شعر الحرب، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الموصل، سنة 2005.

9) – منال عبد الفتاح حسين شتية، قداسة المكان في الشعر الجاهلي، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، سنة 2017.

10) – يوسف شريف، شعرية المكان في ديوان علي ابن الجهم، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، سنة 2016 – 2017.

ثامنا: المواقع الاكترونية

1) – الشعر الجاهلي، خصائص الشعر الجاهلي، أغراض الشعر الجاهلي، 2024/09/31، Rttps// w.w.w.twenkl.com. 12.58

فهرس الموضوعات

مقدمة: ..... Erreur ! Signet non défini

مدخل: الشعر الجاهلي المفهوم والخصائص 7

تمهيد: 8

– الشعر في النقد العربي القديم: 8

– مصطلح الجاهلية. 12

أولا: الشعر الجاهلي المفهوم والمصطلح. 14

1– الخصائص المعنوية: 17

أ– الصدق وتصوير العاطفة وتمثيلها: 17

ب– الخيال القريب: 17

ج– الإطالة والاستطراد: 18

د– النزعة الوجدانية: 18

هـ – البساطة: 19

2– الخصائص اللفظية: 19

أ– غرابة الألفاظ وجزالتها: 19

ب– متانة التركيب وبلاغة الأداء: 19

ج– العناية والتنقيح: 20

ثالثا: بنية القصيدة الجاهلية: 21

1– مقدمة (المطلع): 21

أ– المقدمة الطللية: 21

2– الانتقالات في القصيدة الجاهلية: 24

3– خاتمة القصيدة: 25

4– أغراض القصيدة الشعرية الجاهلية: 26

أ– الفخر: 26

ج– الغزل: 27

د– الهجاء: 27

رابعا: فلسفة الزمان والمكان.....28

1– الزمان: "المصطلح والمفهوم". 28

أ– الزمان لغة: 28

ب– الزمان اصطلاحا:..... 29

ج– المفهوم الفلسفي للزمان. 31

2– المكان: "المفهوم والمصطلح"..... 34

أ– المكان لغة: 34

ب– المكان اصطلاحا: 36

ج– المكان فلسفة: 39

الفصل الأول: فلسفة الزمان في الشعر الجاهلي.....42

أولا– الزمان في الشعر الجاهلي:.....43

ثانيا: مظاهر التعامل مع الزمان في المقدمة الطللية: 47

1– تجليات فلسفة الزمان في المدة الطليلية لِامرئ القيس:..... 48

أ– طول الليل ودلالاته النفسية:..... 51

ب– لوحة الليل في شعر امرئ القيس: 52

2– تجليات فلسفة الزمان في المقدمة الطللية لـــ "لبيد بن ربيعة العامري": 56

ثالثا: مستويات الزمان ودلالاته في البكائية الطللية: 65

1– عند امرئ القيس: 65

2– عند لبيد بن ربيعة العامري: 71

الفصل الثاني: فلسفة المكان في الشعر الجاهلي 74

أولا– المكان في الشعر الجاهلي: 75

ثانيا– تجليات فلسفة في المقدمة الطللية: 87

1– تجليات فلسفة المكان عند زهير بن أبي سلمى: 87

2– تجليات فلسفة المكان عند امرئ القيس: 100

ثالثا: مستويات المكان ودلالاته في البكائية الطليلة: 106

1– البعد الاستعراضي : الأمكنة الاستعراضية..... 106

أ– الأمكنة الاستعراضية عند زهير بن أبي سلمى: 106

2– البُعد النفسي للمكان عند امرئ القيس: 111

خاتمة: 118

قائمة المصادر و المراجع: 122

فهرس الموضوعات: 140

ملخص المذكرة:

يستعرض هذا البحث فلسفة الزمان والمكان في الشعر الجاهلي بالتحديد في البكائية الطللية:

مبيّنا كيف يعكس هذا النوع من الشعر تفاعلا عميقا بين الإنسان وبيئتة الزمنية والمكانية، من خلال قصائدهم البكائية الطللية إذ يعبر الشعراء الجاهليون عن مشاعر الحزن والفقد والحنين، مستخدمين الأمكنة المهجورة والبقايا المتهدمة كرموز الزمن الماضي، يُظهر هذا التفاعل الشعري تأملا فلسفيا في معاني الزمان والمكان، حيث تتداخل مشاعر الشاعر مع الصور المكانية لتشكل نصوصا تعكس الوجود الإنساني بتخيلاته وتغيراته، فالأطلال في الشعر الجاهلي تُعتبر محطات للذاكرة ومحاولات لإيجاد معنى في عالم متغير وغير مستقر، وبذلك يُشكل الشعر الجاهلي الطللي جزءا أساسيا من التراث الأدبي العربي، مُقدما رؤية فريدة للفلسفة الوجودية التي تستند إلى تداخل الزمان والمكان في تصوير التجربة الإنسانية.

RESUME DU MEMOIRE :

Cette étude examine la philosophie du temps et de l'espace dans la poésie préislamique, particulier dans les élégies des ruines abandonnées, montrant ce type de poésie. Reflète une interaction profonde entre l'homme et son environnement temporel et spatial, A' travers leurs élégies des ruines abandonnées, les poètes préislamiques expriment des sentiment de tristesse, de perte et de nostalgie en utilisant les lieux désertés et les vestiges en ruine comme symboles du passé, cette interaction poétique révèles une réflexion philosophique sur les significations du temps et de l'espace, ou' les émotions du poète se mêlent aux images spatiales pour créer des textes qui reflètent l'existence humaine avec ses fluctuations et ses changements. Les ruines dans la poésie préislamique sont considérées comme des stations de mémoires et des tentatives de trouver un sens dans monde perpétuel changement et instable Ainsi, la poésie préislamique des ruines constitue une partie essentielle du patrimoine littéraire arabe, offrant une vision unique de la philosophie existentielle basée sur l'interconnexion du temps et de l'espace dans la représentation de l'expérience humaine.